



جمال شاهين

المكتبة الخاصة ٢٠٢١

بسم الله الرحمن الرحيم





جمال شاهين

حصرم فارق القرية للحياة في المدينة

فوجد الصعاب والبؤس

فتحول لمتسول في شوارع المدينة

فاضطر للعمل عند زعيم الشحاذين

ثم سرقه وتحول لغني

ثم رحل لبلدة جديدة وسخر منه

ثم ذهب لجزيرة بحثا عن سيف برغوش

وعاش مغامرات ودخل مدينة الياقوتة

وانتصر على لصوصها

وعاد للعيش في بغداد

فهذه مغامرات حصرم بن سلام


حصرم بن سلام

حصرم بن سلام

قال لي صاحبي هانئ بن دينار ذات مساء ، وهو يمسك يدي بيده ، وكان ذلك بعد أن صلينا صلاة العشاء في الجامع الكبير في وسط مدينة السلام : أيها الصديق الطيب ، لقد التقيت برجل كريم شجاع عركته السنون والأيام ، يسكن في طرف المدينة في منزل واسع كبير محاط بأشجار كثيرة ومختلفة الألوان والثمار، أشجار السرو الباسقة والصنوبر والحور والجوز والنخيل والتفاح ، ولا تنسى العنب والرمان والزيتون واللوز والليمون والخوخ ، جـنة من جنات الأرض ، وفيه أو فيها أيها الصديق الأزهار ذوات الألوان من الياسمين والورد والنرجس ، أسماء كثيرة ذكرها أمامي البستاني قيم البستان نسيت أكثرها ، فهي جنة رائعة ذكرتني بحدائق الوزير خالد الهندي التي كان يضرب بها المثل أيام مولانا أسد الدين أحمد بن السلطان نهار الدين عباس ، والتي أكثر من وصفها شعراء ذلك الزمان ، وتغنى بها أهل الطرب والغناء ، وفي هذه الجنة غرفة واسعة لجلوس الضيوف والسمر في ليالي الصيف والمطر فيها من الفرش النادر والثمين ، فيها بسط ووسائد مطرزة بالحرير وخيوط الفضة ، وعند صاحب تلك الجنة الغلمان ذو الحسن والبهاء والجمال الآخاذ ، وعن الجواري الحسان لا تسأل أيها الصاحب ، فهو يعيش كأنه ملك من ملوك الأندلس في الزهراء أو الزاهرة ، وصاحبي حصرم بن سلام سكن هذا القصر منذ عهد قريب ، عندما قرر أن يترك ويكف عن السفر والرحيل والترحال بين المدن والأمصار، فجاء مدينة السلام ينشد السلام والراحة ، ثم اشترى هذا المكان من الوزير أو قريب الوزير بهاء الدين أحمد وزير مولانا أمير المؤمنين سيف الدنيا وناصر الدين .

وتابع الكلام صاحبي ابن دينار قائلا : ولقد التقيت به منذ أيام ، فدعاني لقصره ، فشاهدت ذلك البهاء والجمال ، ودار بيننا الحديث عن الحوادث والـفقر والغنى ، فتبين لي أن صاحبنا حصرما صاحب حكايات ومغامرات ، وقصص ساحرات باهرات ، وهو يبحث عن إنسان كاتب أديب ، يسمع حكاياته ويدونها على وريقاته؛ لتكون تسلية لمن تقع بين يديه وتحت عينيه

ليرى كيف كان فقيرا معدما لا يملك درهما ولا نقيرا ؟ وكيف كان أفقر الناس ؟ فأصبح بفضل من الله ذا مال وفير وخير جسيم ، فتذكرتك يا سلامة ، ورأيت أنك خير من يسمع الكلام ، ثم يدونه على القراطيس ، ويجعل منه حكاية فيها عبر وثمرات ، فوعدت ذاك المفضال بإحضارك ؛ لتسمع تلك الحكايات العجيبات ، وتكتبها على أوراق لامعات ، ولسوف يجازيك خير الجزاء ، فيا أخي سلامة ما تقول في هذا العرض ، نذهب ونمشي إليه كل مساء بعد صلاة العشاء بإذن الله تعالى رب كل المخلوقات ، نتسامر معه ، ونسمع سوالفه ومغامراته ، ثم تعود للبيت ، وترسمها بقلمك الرائع يا سلامة بن محمود .

فلما سمعت كلام صاحبي هانئ في صاحبه الجديد حصرم قلت له : أمهلني أيها الصاحب يوما أو يومين ؛ لأرتب الأمر في ذهني وعقلي وأنظر في وقتي ، وافترقنا على ذلك .

وبعد يومين اثنين التقيت بصديقي ابن دينار ، وكان ذلك أيضا بعد صلاة العشاء عند المسجد الكبير في دار السلام ، وبعد التحية والسلام ، قلت لصاحبي: خذني لصديقك الجديد ابن سلام ؛ لنسمع ما اتفق له مع الأيام من القصص والعبر والأخبار.

فاردفني على بغلته البيضاء ، وهو يقول مسرورا : لقد كنت متأكدا واثقا بأنك لن ترفض طلبي ، ولن تخيب اختياري يا حضرة الأديب الغالي .

وبعد مسير نصف ساعة من الزمان ، كان الغلمان يدخلوننا منزل وجنة حصرم بن سلام الذي رحب بنا أحسن ترحيب كأعز الأصدقاء والأصحاب ، وتعارفنا من جديد ، ودار بيننا السؤال والجواب عن الحال والأحوال حتى وصلنا بيت القصيد والغاية من الزيارة إلى ذلك المكان ، فأخذ نفسا عميقا ثم قال : يطيب بكم اللقاء ، وسأذكر لكم قصتي الأولى مع العميان في مدينة هاوان ولكن بعد تناول الطعام.

وكان رئيس الغلمان كأنه في انتظار الإشارة من صاحب الدار ، فجاءت المائدة وعليها ما لذ وطاب من الطعام والشراب ، ولما رفعت المائدة وغسلنا أيدينا بالماء الزاهر ، أحضرت الفواكه ذات الأشكال والألوان ، فأخذنا أنا وصاحبي بالقضم والهضم ، مرة من التفاح ، ومرة من

الأجاص ، ولا تسأل عن الأكواب ذات الأصناف التي يضعها بين أيدينا الغلمان ، مرة عصير البرتقال ، وأخرى عصير الرمان ، وانشغل مضيفنا بالكلام .

"حكاية الشيخ عبدون "

وكان يقول: أيها الصديقان العزيزان تبدأ حكايتي عندما غادرت وفارقت قريتي الصغيرة ، وهي بلدة صغيرة اسمها "جمانوسا "، وأذكر أن أبي مات وأنا غلام يافع ، لا أعي عن دنياي شيئا ، وكانت والدتي مريضة بمرض شديد ، وكنا نعيش على إحسان أهل اليسار في البلدة ، صحن طعام من هنا وآخر من هناك...وبعد سنوات من البؤس والشقاء ماتت أمي ولحقت بأبي سلام ، فظللت أنا وأختاي اللتين تكبرانني نعاني من الفقر والحاجة ، ومنذ وفاة أبي وأختاي تعملان وتخدمان في بيوت الناس مقابل عدد من الدريهمات حتى بلغت من العمر عشرين سنة ، فودعت أختاي مقررا الرحيل إلى مدينة كبرى ، باحثا عن الحياة الفضلى، والرزق الأوسع، مخلفا ورائي حياة البؤس والشدة ، فقلت : أضرب في الأرض لعلي أجد السعادة في بلدة أخرى .

فخرجت من القرية ، ولا أملك في سروالي سوى خمسة دراهم تصدقت بها عليّ أختاي ورغيف من الخبز ، وتوكلت على الحي الذي لا يموت ، ولم أتعلم في قريتي سوى رعي غنيمات لأحد الميسورين مقابل طعام وشراب وكسوة في العام مرة .

وقال حصرم بعد ذلك التقديم : فقطعت عدة قرى حتى وصلت إلى مدينة كبيرة عظيمة اسمها هاوان، يقال إن ملكها يدعى بالملك النبهان، وفي أول مسجد صادفني أمضيت ليلتي ، ولقد كان قيم ذلك المسجد طيبا أطعمني وسقاني ورثى لحالي؛ ولكنه عبد فقير مثلي يعيش على إحسان الاخرين وصدقاتهم ، ومع ذلك شاركني في قوته ، وكان يقسمه بيننا ، ومكثت أياما أتنقل من سوق إلى سوق ، ومن درب إلى درب ، وفي الليل أعود إليه أبيت عنده ، ومن خلال تجوالي في أزقة المدينة وأحيائها ومساجدها وأسواقها لاحظت أن الناس يتصدقون ويعطفون على العميان والعوران وذوي العاهات ، فوقع في نفسي أن أقلد العميان لأجمع مبلغا من المال

أدبر به شأني ، فتقرر لدي أن أتظاهر بالعمى ، وأجلس على باب مسجد كبير أو سوق كبير متظاهرا بالعجز والحاجة، فملابسي رثة قذرة أكل عليها الدهر وشرب ، وعصبت رأسي بعصابة وسخة، وطليت وجهي وجبيني ببعض الرماد والشحبار، وأغمضت عيناي ببعض الصمغ من إحدى الأشجار، وحملت عكازا عتيقة، وتمجلست أمام بيت من بيوت الله ، أطلب من الناس الصدقة والإحسان..وما خيب الناس ظني ، فهذا يلقي دانقا وآخر درهما..وهي مهنة سهلة هينة ، فكنت أمضي نهاري في التجوال بين المساجد والأسواق، وفي الليل أعود لصاحبي قيم المسجد السابق ذكره فأنام ، ولم أحدث صاحبي المؤذن بشيء من أمري ، ولا هو سألني عن ذلك .

ولكن إلى متى أستمر في التسول ؟! .. هذا ما كنت أفكر به ويؤرقني يا سادة يا كرام ! وما مضت عليّ بضعة أيام في هذه المهنة اللطيفة الا وثلاثة من العميان يحتكون بي ويتعرفون عليّ ، وبعدئذ قال لي أحدهم : بما أنك غريب عن هذه البلدة فإني لك ناصح .. فنحن نعمل عند الشيخ عبدون .. نشحد ونتسول طول النهار ، وفي الليل يحضر غلمانه ويقتادوننا إلى بيت الشيخ عبدون ؛ فنأكل وننام حتى الصباح ، ويأخذ الشيخ عبدون ما كنا قد جمعناه طول النهار.

وقال الشحاد الضرير الثاني : نعمل في النهار وفي الليل ندفع له المال ؛ فيكرمنا الشيخ عبدون بالأكل والحمام والمنام، ولا نتعرض للصفع والإذلال من غلمانه .. واعلم يا سيد عيد أن ذلك خير لك من أن تظل تبيت في الجوامع .

ولما طال صمتي قال ثالثهم : وإن رفضت ما نعرضه عليك نخشى أن يصيبك من سيدنا عبدون الأذى الكبير ، ويطردونك من المدينة شر طردة .. فهو المسؤول عن كل العميان وأصحاب العاهات الذين يتسولون في هذه المدينة يا غريب .. وأنت بحاجة لمأوى ومساعدة قال حصرم بن سلام : لما سمعت كل كلامهم أدركت أن عليّ خطرا إن لم أجتمع بشيخهم عبدون ، أو أن أتخلى عن حرفة الشحدة فلا أراه ، ولكن للدراهم حلاوة وخاصة لمحروم مثلي

فاتفقت أن ألتقي بهم في اليوم التالي بعد صلاة العشاء أمام مسجد السلطانة ؛ لأصحبهم إلى الشيخ عبدون متعللا بأني راغب في وداع صاحبي المؤذن .

عدت لصاحبي حمدان واستودعته ما جمعت من مال أمانة عنده مظهرا له أني جمعتها من كد عمل شريف ، ومعلنا له أني خارج للعمل خارج المدينة ، ولما ارجع إليه يدفع لي مالي ، وإن لم أعد فهو هبة مني إليه ، وفي الصباح ودعته وانطلقت لعملي المعروف لديكم أيها السادة الكرام . . يا قوم .. تسولت طول النهار، ثم اجتمعت بالعميان الثلاثة أمام مسجد السلطانة ، بعد خروج الناس من الجوامع مؤدين الصلاة المكتوبة لفرض العشاء، ومكثت معهم حتى أتى شاب طويل القامة يدعى "راحب" ، فرحب بي وعرفني على نفسه ، وقادنا لمنزل الشيخ عبدون ، وهذا الشاب وغيره من غلمان الشيخ المذكور مهمتهم قيادة العميان والعجزة إلى أماكن الشحدة صباحا ومساءً.. وهو والعميان الثلاثة يعتقدون أنني كفيف مثلهم ، وأني رجل كهل لست شابا ، فثيابي العجيبة الواسعة القذرة تظهرني بأنني ضعيف البنية وكبير في السن ..ولقد خشيت حقا أن أتعرض للضرب والطرد من بلاد الملك النبهان ، فصممت على مسايرتهم والتعرف على عبدون شيخهم وزعيمهم .

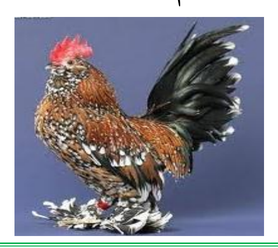
وقادنا راحب خادم عبدون إلى حي أو درب بدا لي من أفقر وأقذر دروب مدينة هاوان ، وفي آخر الحي أدخلنا الغلام من باب صغير ، كان مدخلا لعدد كثير من الغرف ، وسمعت لغطا كثيرا فتيقنت أن كل المتسولين يقطنون في هذا البيت الكبير .

فقال لي أحد العميان الثلاثة: هذا يا صاحبنا الجديد مجتمع العميان والعوران المتسولون في هذه المدينة .. يقوم الشيخ عبدون برعايتهم وخدمتهم مقابل ما يجمعونه خلال النهار ، وأخذ يسرد على مسامعي محاسن السيد عبدون ، وأنا صامت وكلي رهبة وقلق ، ثم أدخلوني على الشيخ عبدون فإذا هو رجل بدين مشدود العضل معتدل القوام واسع العينين مقطب الجبين أصلع قذر ، كنت أرى أنه قريب من الستين ، يجلس على كرسي فخم ؛ كأنه أحد ملوك الدنيا ، وأنا في ذلك الحين لم تقع عيناي قط على ملك ، فقذفت رؤيته في قلبي الرعب والوهن

والهيبة ، وعلى يمينه زوجة ، وعلى اليسرى زوجة أخرى ، وأمامهم جاريتان ، فحياني أحسن تحية ورحب بي في مدينة هاوان خير ترحيب ، وأظهر لي حبه وعطفه وشفقته على العميان والضعفاء ، وأنه يأويهم من برد الشتاء وحر الصيف ، ويوفر لهم الزاد والحمام والعناية التامة ، فأبديت له شكري وثنائي على أريحيته وحبه للمساكين ، وبعد ذلك سألني عن اسمي وبلدتي وسبب مجيئي لهذه البلدة ، وحذرني في النهاية من الغدر وإخفاء أي شيء من المال الذي أجمعه من عباد الله طول النهار .

قال صديقنا حصرم بن سلام : الحق أنه ملأ قلبي رعبا مع أنني في قريتي النائية كنت أصرع الضبع وأفتك بالذئب، وكم انتفعت بجلودها أيام أن كنت راعيا ؟! .. رعبت من نظراته النارية القاسية الفاحصة ، ووقع في نفسي المغادرة إلى بلاد أخرى على الفور.. ولكني استجمعت شجاعتي التي اكتسبتها في "جمانوسا" وهززت رأسي راضخا بالموافقة ، وبعد هذه الجلسة قام غلمانه بتفتيشي وسلب ما معي من القطع المالية ، فظهر لي أنه رجل لا ذمة عنده ولا دين .. وله زوجتان عملاقتان مثله بل أشد شراسة ولؤما منه كما أبدت الأيام وعند انتصاف الليل أخذوني لغرفة الطعام ، فأحضرت لي الجاريتان السوداوتان طعاما من العدس والبصل وفاكهة ، ثم حضر غلام من غلمانه وأدخلني حجرة أنام فيها ، فوجدت فيها ستة من ضيوف الشيخ عبدون ، وترك الغلام يدي صارخا: نم يا عيد مع هؤلاء الناس ، فهذه حجرتك عند الرقاد .

كما قلت لكم سابقا لقد ملأ الخوف قلبي من عبدون وجماعته ، وهتفت مؤنبا نفسي :إنني قد تورطت في هذه العمل الشنيع وهذا جزائي ..ولكن لابد من الصبر ومعرفة أسرار هؤلاء القوم قبل عداوتهم أو الهرب من بين أنيابهم .



قال حصرم : أيها السادة الكرام ! فلما يصيح الديك لصلاة الفجر يأتي غلمان الشيخ ويوزعون علينا قطعا من الخبز ، أظن أنه ما يتبقى من وراء عشاء هؤلاء المساكين ، وخلال ذلك يبدأ غلمان عبدون بنقل هؤلاء إلى أماكن عملهم ، فيأخذ كل غلام اثنين أو ثلاثة ، ثم يعودون كرة أخرى ، وهكذا يفعلون بنا ليلا .

إذن هم يتركونهم عند أبواب المساجد ، وقلب الأسواق ليتسولوا ذلك النهار، ثم تتجمع كل مجموعة في الليل عند مسجد مسمى لها ، فيحضر الشاب القائد فيقودهم إلى قصر عبدون العتيد ، فيأخذون ما جمعنا من مال ، وعلينا أن نخبر عبدون بكل شيء يحدث لنا في الأسواق ؛ فإذا حصلت لأحدنا مشكلة مع أي شخص عليه أن يحدث بها عبدون ، وإذا ظهر متسول جديد في المدينة على من التقى به أن يخبر الشيخ عبدون بأمره ، ولما يتجمع العميان والعوران وغيرهم من أصحاب المصائب فيؤخذ بنا إلى غرفة الطعام ، ومنها إلى غرف النوم ، ويوجد حمام للاغتسال ، ومسموح للمرء منا أن يستحم فيه مرة واحدة في الأسبوع ، وبعد حين يسير لاحظت أنه إذا شرد أحد أو اختفى لأمر ما ، ثم قبض عليه أو عاد بنفسه يحبس في غرفة مغلقة بدون هوادة أو رحمة عدة أيام ، ثم يعفى عنه ، ويحذر من تكرار فعلته وغيبته ، فإذا تكرر غيابه وعدم التزامه بأمر الجماعة أو أخفى ما أخذه من الناس أو بـعضه يحبس شهرا يذل فيه ذلا مهينا لا يطاق ، ثم يعفى عنه ، فإذا عاد للمخالفة من جديد يحبس حتى الموت ، ثم يقذف به على مزبلة في طرف المدينة الشرقي ، ولا يخبر أهله عنه إن كان له أهل أو أقارب ، والشرطة لا تكترث للأمر ، هذا العقاب اللئيم سمعت به من هؤلاء الضعفاء .

مكثت أشهرا أعمل للسيد عبدون ، وكنا نسمع من السيد عبدون السبّ والشتم القبيح إذا قصرنا في التحصيل ، وأحيانا كثيرة نتعرض للرفس والصفع من عبدون اللعين وزوجتيه الضخمتين، وأحيانا أخرى الحرمان من العشاء أو ننام في العراء، وقد حصل لي من كل ذلك الهوان ، فذات نهار لم أتحصل إلا على درهم واحد ، فاتهمني الرئيس بالغش والخيانة ونكران الجميل، وجرى تفتيشي ثلاث مرات، وصفعني صفعة طار لها مخي ورأسي حتى أنني مرضت

منها أسبوعا كاملا، فحقدت على عبدون على أثرها حقدا شديدا ، وصممت أن أدمر عبدون تدميرا تتحدث به الأجيال في مدينة هاوان ، ويسمع به الملك النبهان وحاشيته .

وتابع محدثنا حصرم القص علينا بعد أن تعرض للصفع والتجريح من سيد الشحاذين الشيخ عبدون ، فقال : ولكني أيها الصديقان في هذا الأسبوع علمت أين يخفي ذاك الرجل القاسي أمواله التي يسلبها من العميان والعوران ؟! فهو يضعها في غرفة زوجته "عبلة " فوقع في قلبي أن أحرق قلبه على ماله ، فبدأت أرسم خطة سرقة مال عبدون، والذي ساعدني على كشف هذا السر أنه مع ضحى النهار يخلو المكان الا من عبدون ، تخرج الزوجتان بصحبة الغلمان ، وتخرج معهما الجاريتان السوداويتان المسئولتان عن إعداد طعام المساكين ، يخرج الجميع إلى الأسواق لشراء الأقوات ، وتحويل القطع النقدية إلى حلي وجواهر ، عندما انطلق القوم دخل عبدون إلى غرفة عبلة ؛ فكأن السيد عبدون نسي وجودي ، ولأنني مريض طريح الفراش، وكذلك لاعتقاده بأنني كفيف لا أرى، فلن أكشف سره، فدخل غرفة السيدة عبلة ، وأخرج جرة فخارية واسقط منها المال ، وأخذ في إحصائه ، فسمعت صوت المال، فتسللت وشاهدته وهو يعده ويعيده للجرة ، ثم يضعها في حفرة في غرفة السيدة عبلة ، ثم أهال عليها التراب والفراش ، وعدت لغرفتي سريعا أئن من المرض والألم ؛ فكأنه شعر بحركتي فزارني وهو هائج ، فقال: يا عيد ألم يخف مرضك وألمك بعد ؟! .. لقد مللنا من مرضك لقد أصبحت عالة على إخوانك وتأكل وتشرب وتنام على جيوبهم . وسب ولعن وصرخ ونوح ثم انصرف يتفقد أمواله .

المهم أيها الأصدقاء كبرت في مخي ودماغي فكرة تدمير الشيخ عبدون ، قلت لنفسي: اصبري يا نفس ..اصبر يا حصرم ، وتعافيت من مرضي وعدت لمزاولة المهنة كالعادة ، وظللت على ذلك ما يقارب أشهر ثلاثة ، أتحمل فيها ظلم عبدون وزوجتيه ،وأقول لنفسي الناقمة " اجمع اجمع سيصير كله لي "، واعلموا أيها الأصدقاء الطيبون أن عبدون هذا إذا مرض أحدنا لا يهتم به كثيرا ، ولا يحضر له طبيبا ؛ وإنما يتغاضى عن شغله بضعة أيام، فكنا نحن الضعفاء

نعطف على بعض، ونواسي بعضنا بعضا إلى أن كان يوم قد مرض فيه أحد الشحاذين مرضا هلك على أثره ، فلم يدفنوه حسب العوائد البشرية ؛ ولكنهم أخذوه في جوف الليل وألقوه بالقرب من مزبلة بعيدة .. ولقد نسيت أن أذكر لكم أن عبدون هذا اللعين كان قد حذرني في أول الأمر من كشف أسراره ، أو الحديث عن شيء يجري في المنزل لأحد الناس ، أو أحدث أحدا بما أسمع في منزله الرهيب ، وبما أننا فقراء ضعفاء أصحاب عاهات لا أهل ولا مأوى فلا نستطيع أن نخبر أحدا بما يقع علينا من ظلم وذل ، فكان موت هبار قاسيا عليّ ، ونهايته السيئة في المزبلة قد أحرقت قلبي ، وأعطاني دفعة أخرى من الشجاعة للانتقام من عبدون وزوجتيه وغلمانه ؛ ولكن هؤلاء العميان الحقيقيين بحاجة لمن يطعمهم ويوفر لهم النوم والدفء فرضوا بحياة الهوان عند عبدون الجبار القاسي القلب ، ومع هذا الحدث المرعب وضعت وأكملت خطة الانتقام .

فزرت صاحبي حمدان المؤذن وأخذت منه خمسين درهما ، ووهبته الباقي وودعته وداعا أبديا ، واستأجرت منزلا بخمسة دراهم في الأسبوع الواحد ، واشتريت ثيابا جديدة حسب الخطة ، فصرت خلال النهار أتسول بعض الوقت ، وامكث في بيتي حتى الليل ، ثم ارتدي ملابس التسول والفقر ، ثم اجتمع بمجموعتي عند أحد المساجد الموصوفة لنا ، فيأتي أحد غلمان عبدون ويقودنا للبيت ، ويأخذون ما جمعناه في النهار ، ونسمع الكلام البذيء الردي فنأكل وننام ، وقد عاهدناهم على بذل أقصى الجهد في التسول والرجاء .

اعلموا أيها الأصدقاء أنني أخضعت منزل عبدون للمراقبة أثناء النهار، وكما رويت لكم سابقا كان المنزل يفرغ تقريبا فترة الضحى ، فلا يبقى الا عبدون ومن يكون مريضا لا يستطيع العمل في ذلك اليوم ، فكانت الخطة اقتحام المنزل أثناء غياب القوم ، وذلك في يوم لا يكون أحد من العميان موجودا فيه ، وجاء اليوم سريعا ، فلما خرجنا مع غلام عبدون صباحا ثم تركنا في الأسواق كالعادة ، فعكفت إلى منزلي المستأجر ، فخلعت ثياب العمل ولبست ثيابا أخرى تظهرني شابا مفتول العضل ، وأخذت كيسا من الخيش وحبلا وسكينا طويلة ،

وأسرعت نحو بيت عبدون أراقبه خفية ، وفي الوقت المعتاد خرجت الزوجتان والجاريتان والغلمان ، ففرحت لأن خطتي تتقدم كما رسمتها ، ولما اختفوا عن الأنظار تريثت قليلا حتى ابتعدوا ، فتقدمت نحو باب المنزل وقرعته بشدة ، ثم دفعته داخلا فإذا عبدون يخرج من غرفته هائجا وهو يصيح : من بالباب ؟ بل مَن أنت ؟!

فغيرت من لهجتي المعروفة لديه وقلت برباطة جأش : أنا غلام الشيخ جدعان الذي أرسلني إليك ..!

فصاح : مَن جدعان هذا ؟ يا هذا !

فقلت وقد أصبحت أمامه : يا سيدي ! ألا تـعرف الشيخ جدعان ..الشيخ المعروف لأهل المدينة كلهم.

فصاح : لا أدري مَن هو سيدك فأنا لا أعرفه ، ماذا يريد جدعون هذا أو جدعان مني ؟ يا غلام النحس!

وفي هذه اللحظة الحاسمة كانت يدي قد أمسكت بالسكين مسكا قويا وقبل أن ينهي كلامه كانت سكيني تنغرس في كرشه ، ولكمته لكمة قوية على الفور فوقع على الأرض طريحا يصيح ويخور ، فوضعت في فمه خرقة ، وأوثقته بالحبل الذي أحضرته معي ، ثم اقتحمت غرفة عبلة، وأخرجت الجرة وأفرغتها في الكيس، ووجدت فيها صندوقا فإذا هو ممتلئ بالعقود والجواهر فأفرغته هو الأخر وأغلقت الكيس ، وعدت لبيتي الخاص وخبأت المال في حفرة كنت قد أعددتها لـمثل هذه الساعة ، ومكثت حتى الليل ـ وكنت قد أزلت الدماء التي أصابت أنحاء من جسمي ـ فلبست ثياب التسول ، وقد هدأت أعصابي لهذه المغامرة الرهيبة ، وأخذت في التسول كالمعتاد ، وقد أعددت مبلغا أكثر من المعتاد لأسلمه لعبدون اللئيم ، ولما حضر غلام عبدون ليعود بنا إلى البيت كان متوترا وقليل الكلام ، وكأن كارثة حلت به بل هي كارثة ، ولولا الظلام لرأيت أن وجهه كان مصفرا ، وقادنا للبيت بهدوء وصمت ، ولقد كنت قلقا من أن يكون عبدون فطنا ، وعرف صوتي ولكنـتي؛ ولكني أقول

لنفسي مطمئنا لها : هذا احتمال بعيد .. وهو يعتقد بأنني أعمى وكهل .

كان البيت هادئا لم يستقبلنا الشيخ عبدون ويشرف على سلبنا كعادته، استقبلتنا إحدى زوجتيه ، وأخذت منا ما جمعناه من المال ، واطعموننا العشاء بعجلة ، فأظهرنا دهشتنا وتعجبنا فنهروننا عن الاسترسال في الفضول وإلى غرف النوم ادخلوننا ، لقد كان المكان متوترا وكئيبا تلك الليلة ، فالغلمان خائفون والجاريتان كذلك ، وكان الصمت والحزن يخيمان على المكان .

وبعد أيام يسيرة اجتمعت بنا احدى الزوجتين ، وذكرت لنا أن لصا اقتحم البيت واعتدى على ولي نعمتنا الشيخ المحترم عبدون وسرق المال ، فعلينا أن نجتهد في الإصغاء هنا وهناك لعلنا نعرف شيئا عن اللص الخطير ، ووعدت هذه الزوجة المساكين بدجاجة محمرة في الفرن ، دجاجة كاملة لكل من يأتي بخبر عن السارق والمال المسروق ، فسال لعاب المساكين لهذا الوعد الغريب.

قال صاحبنا الجديد حصرم بن سلام : المهم أيها الأصدقاء أنني أدركت أن القوم قد بلعوا الملعوب ، ولا يستطيعون فضح أنفسهم بإخبار شرطة الحاكم الملك النبهان ، وإنما غيروا نظام الخروج ، فكان يبقى غلام عند الشيخ ، وتبقى امرأة من نسائه في فترة الصباح ، فهم خائفون من عودة اللص مرة ثانية .

وبعد هذه الضربة خفت حدة القوم على العميان ، فقد خف السب والشتم ، وقل الاجتماع بعبدون ، وتعافى عبدون هذا بعد شهرين من الزمان ، وتحسنت صحته بأسرع مما ظننت ، فبدأت أفكر بملعوب جديد أو آخذ المال الذي سلبته وأغادر هاوان .

أيها الكرام خلال عملي بالتسول تعرفت على أسواق المدينة والتجار على مختلف ألوانهم ، وصار من ضمن عملي اليومي ترك شخصية الشحاذ من الضحى حتى العصر ، وخطر في نفسي أن أترك الشحاذ واعمل لي حانوتا وأتعلم مهنة جميلة ونظيفة ، فقررت عرض أحد العقود على تاجر الذهب والفضة ، فأخذت ذات نهار عقدا وذهبت لأشهر تاجر ذهب في

هاوان وهو السيد زهران ، ولما تناول الرجل العقد وأمعن النظر فيه فأخذ يدقق النظر فيّ ، ويسألني عن اسمي وعملي فرابني ذلك النظر والكلام ، فقلت له : أنا يا سيدي خادم في بيت أحد التجار ، وحاول معرفة المزيد من المعلومات فتاغضبت وقلت : يا هذا كم تدفع فيه؟ فزوجة سيدي أمرتني ببيعه ومن دفع أكثر من السادة التجار بعته إياه .

فقال لي : كم دفعوا لك ؟ فأجبت : أنت أول تاجر أعرضه عليه .. وأنت أشهرهم في مدينتنا هذه .

فقال : ما رأيك أن تصبر على بقائه عندي لمساء الغد؟ وسأدفع لك فيه خمسين ألف درهم ، سأعرضه على ناس طلبوا مني عقدا قريبا من صفاته فتسفيد واستفيد .. وأما ثمنه اذا بعته الساعة قد يبلغ سبعة الاف دينار.

فقلت : عرض مغرٍ ، هات دفعة مقدمة أو رهنا وسآتيك غدا مساءً على خمسين ألف درهم والزيادة لك يا سيدي ، وستسر سيدتي أم البشر بذلك . فقال وهو يضحك : هل الرهن ضروري ؟ .

فقلت وأنا أجاريه في الضحك : هذه يا سيدي الدنيا حياة أو موت وابن أدم طماع

فقال ضاحكا : أنت خادم ذكي ، ما اسمك أيها الخادم الأمين ؟

فقلت : خادمك نحلة ، خادم السيدة أم البشر ، وبما أن ثمنه كما قلت سبعة الاف فهات خمسة الاف .. وإذا بعته لصاحبك الذي ذكرت بالمبلغ المذكور دفعت لي الباقي وأخذت نصيبك .

قال التاجر : أعطيك خمسمائة درهم وغدا نتفاهم .

وبعد أخذ ورد قبضت ثلاثة الآف دينار وانصرفت وأنا قلق وحذر ، فعدت للبيت وأنا أتلفت حولي ، وعند العصر لبست ملابس التسول واتجهت نحو متجر زهران أراقبه إلى الليل ثم اجتمعت برفاقي في التسول حتى جاء غلام الشيخ عبدون وأوصلنا لبيت عبدون ، وفي الصباح الباكر بعد أن تركنا الغلام توجهت نحو متجر الذهب ، وأثناء مراقبتي للمكان

شاهدت إحدى زوجتي عبدون تدخله ، ومعها أحد الغلمان ، فأدركت أنّ لزهران علاقة مع هؤلاء القوم ، وأنه اشتبه في العقد ، فلابد أنه هو الذي باعهم العقد فعرفه ، ولابد أنهم اخبروه بأمر السرقة ، فقررت عدم الذهاب لزهران مساء هذا اليوم كما اتفقنا ، ولاحظت أن زوجة عبدون منذ دخلت الحانوت لم تخرج بل ظلت قابعة فيه ، وغاب الغلام عند العصر ، ثم عاد بصحبة ثلاثة غلمان ، فأدركت أنهم ينتظرونني للقبض عليّ .



فتأكد عندي أيها الأصدقاء أن بين زهران الصائغ وآل عبدون علاقة تجارية، ولما هبط الظلام تحركت إلى مكان اجتماعنا بغلام عبدون ، فقدم الغلام راحب متأخرا ، ولما وصلنا البيت أرخيت أذني لسماع أحاديث عبدون وزوجتيه ، فسمعت إحداهما تقول: إن السارق قد يقع قريبا فقد بدأ يظهر المال المسروق ، فقد أحضر خادم لأحد التجار عقدا لبيعه عند صاحبنا الشيخ زهران ، فكما تعلم فهو الذي باعنا العقد ، وكنت قد أسررت له بضياعه فوعدني بالمساعدة ، وقد عرض على الغلام خمسين ألف حتى يوقع به ؛ ولكن الغلام اللعين لم يحضر مساء هذا النهار كما اتفقا ، وسنستمر بانتظاره .

فلما سمعت هذا الكلام حمدت الله على حذري من زهران ، وشكرته تعالى على عدم وقوعي في فخه ، ثم رد عبدون على زوجته المتكلمة : وأنا سأخرج معكم لمتابعة الأمر بنفسي لعلني أصل لغريمي وأمسك بهذا الغلام .. ولعله هو الذي طعنني بالسكين ، وأعرف من هو هذا التاجر الذي يعمل عنده ؟ .

قالت المرأة : لا بأس نذهب جميعا ، وتذهب ضرتي لجلب الأطعمة ، وتبقى الجارية نرجس في البيت .

فصممت عندئذ على سرقة الشيخ عبدون مرة أخرى وضربه ضربة ثانية ، ولما انطلقنا بعد

الفجر لممارسة عملنا النظيف ، ذهبت لبيتي الخاص وخلعت ملابس الشحاذ ، ولبست ملابس جميلة فعدت فتى جميلا ، وأخذت كيسا وحبلا وخنجرا وسرت إلى حي الشيخ عبدون ولما تأكدت من خروج القوم دهمت البيت، فخرجت نرجس من حجرتها معتقدة أن أحدهم قد عاد ، فوضعت يدي على فمها بسرعة قبل أن تصرخ وفي وقت وجيز كانت موثقة بالحبل ، واقتحمت غرفة عبلة وإلى الجرة فوجدتها فارغة ، فبحثت في أرضية البيت حتى وجدت أرضا طرية فحفرتها فوجدت فيها جرة أخرى فأفرغتها في كيسي وخرجت مسرعا لبيتي وأنا أقول القاصمة لعبدون .

وبعدت العصر لبست ثياب التسول ، واتجهت نحو دكان زهران اللعين فلم أرى قوم عبدون فلابد أنهم عرفوا بالأمر ، ولما عدت مساء كان البيت هائجا مائجا ومكثت أياما عندهم ، ثم تخليت عن شخصية المتسول ، واشتريت منزلا ومتجرا ، وجعلت من نـفسي ثريا قادما من بلد بعيد ، انتهت شخصية عيد المتسول، وأصبحت تاجر الحبوب الشيخ سلمان ، واشتريت عشرة غلمان وجاريتين ، ولم تمض عليّ سنة حتى صرت أشهر بائع حبوب في مدينة هاوان ، والتف حولي أبناء التجار ، وتزوجت امرأة من المدينة ؛ ولكني للأسف أيها الأصدقاء الكرام تعلقت بالخمر والميسر والصيد ، فلم يطل بي المقام حتى فقدت كل الأموال من ذهب وجواهر ومتجر وغلمان وجواري ، كأني لم أملك شيئا ، ولم أجد من الناس من يعرفني ويقف معي في هذه المحنة ؛ لأنني صاحب ميسر ؛ وأنني شاب طائش فحزنت لحالي ، وقد فارقتني الزوجة التي لم تنجب لي ابنا ، ورثيت على نفسي ، ولعنت الخمر والنساء والمجون، وقررت الهرب خفية من هذه المدينة وكان لي ذلك، وهذا يا سادة يا كرام ما جرى لي في بلاد الملك النبهان من الأحوال والأخبار مع عبدون والعميان .. وحان الآن وقت المنام فقد هيأ لكم الغلمان غرف المنام.

فضحك سلامة وهانيء وقال أحدهما : في الحق لابدّ من النوم ؛ ولكن تباشير الفجر هلت ، فلنذهب إلى المسجد ونصلي مع المصلين ثم ننام ، وسوف نعود إليك مرة أخرى يا حصرم بن سلام !

الجارية ريم

قال سلامة مخاطبا صديقه : لـقد تأخرنا عن صاحبنا حصرم أياما ، فهل نذهب إليه الليلة؟
رد هانىء باسما: لنذهب أيها الكاتب اللبيب ! أولا نصلي العشاء في الجامع الكبير ، وبعدها نهبط عليه فلابدّ أنه على جمر في انتظارنا ، فقد زارني غلامه منذ يومين .

وأردفني صاحبي هانئ على بغلته البيضاء ، ومشينا نحو قصر صاحبنا الجهانوسي ، فوجدناه بشوق شديد لرؤيتنا والحديث معنا ، وبعد أن التزمنا وتعانقنا تعانق الأحباب ، وذكرنا له شوقنا له ومحبتنا لسماع كل أخباره وذكرياته في هذه الدنيا الواسعة ، وكعادته عند كل حضور ، أحضروا لنا أزكى الطعام والذّه ، وبعد رفع موائد الأكل والشراب، قدمت بين أيدينا أطباق الفواكه والحلوى والنـقل ، فقلت : اليوم بإذن الملك المتعال يا سيدنا ابن سلام نسمع منك الحكاية الثانية حكاية الجارية المغنية ريم .

فقال حصرم : على الرحب والسعة أيها الأحبة ، وأنا كلي شوق وهوى للحديث والسمر، يا صاحبيّ تركت هاوان هاربا في جنح الظلام ، ولا أملك سوى بضعة من الدراهم كما قال الملك العزيز لا تغني ولا تسمن من جوع ، وبعد أيام يسيرة وقعت قدماي في مدينة اسمها "سلهوب" ، وعلى الفور ذهبت إلى تاجر كبير دلني عليه الناس ، وعرضت عليه خدمتي وحالي ، فرق قلبه لي وقبلني أجيرا عنده بدرهم ونصف في اليوم ؛ وكان ذلك عطفا منه ولغربتي ، ورضيت بذلك، وامتن عليّ بكوخ صغير لا يصلح الا للطيور والعصافير بجوار مسكنه الكبير.

وأمضيت شهرا في سلهوب وتعرفت على بعض أهل المدينة ، وعلى بعض عاداتها وأحيائها ، ثم استأجرت غرفة واحدة في درب من الدروب ، وكان التاجر حلوم قد زادني نصف درهم ، فأصبحت أقبض منه في اليوم درهمين كاملين ، وذات يوم وأنا والعمال الأخرون في الحانوت الكبير دخلت علينا امرأة صبية ، وبرفقتها شاب جميل الصورة ، من يراهما يظن أنهما من إماء الوالي وغلمانه ، واختارت الصبية ثيابا كثيرة ، وادعت بأنها جارية أخت الوالي ، وصدق

سيدي حلوم كلامها، ولما تجهزت للإياب طلبت من معلمي أن يبعث معها أجيرا لقبض المال من سيدتها الأميرة ، ويعود بها لا يناسبها من الثياب ، ووقع الاختيار عليّ ، فحمل غلامها الثياب ، ومشت أمامنا ، ولزمت الصمت ، ولم أتحدث مع غلام الأميرة ، وظلا يسيران حتى وصلنا لشارع ضيق ، ودخلنا زقاقا لا يسع عرضه أكثر من نفرين ، ومشيت خلفهما إلى أن وقفنا أمام باب في وسط الزقاق ، فالتفتت إليّ الصبية وقالت : يا فتى انتظر هنا حتى يؤذن لك ودفعا الباب ودخلا ، وأنا مندهش من سكن أميرة تشتري مثل هذه الثياب الثمينة في حي أو درب كهذا ، وانتظرت ساعة، ولم يؤذن لي ، فصبرت نفسي ساعة أخرى وطرقت الباب ، لا إجابة ، فازداد انزعاجي وقلقي ، فطرقت بشدة لا مجيب ، ورفست الباب بـقدمي ، لا أحد رد عليّ، وبينما أنا في ضيق شديد هائج كالثور المذبوح؛ فإذا برجل يدخل الزقاق ، ولما اقترب مني ألقى عليّ السلام ، ثم قال : ماذا تفعل هنا أيها الشاب؟ فأجابته بصوت حانق : أنتظر جارية الأميرة التي دخلت من هذا الباب العتيق وأمرتني بالانتظار.

فاغرق الرجل بالضحك حتى أغضبني فنهرته فقال :أأنت غريب عن المدينة ؟!

فصحت به : لماذا السؤال ؟!

فقال ضاحكا : يا هذا ، هذا باب يؤدي إلى زقاق آخر ، ومنه إلى درب البطيخ، هذا ليس مدخل بيت أيها الصديق .

فصحت : ما تقول يا رجل ؟! ودفعت الباب ودخلت ؛ فإذا أنا بزقاق يربط هذا الزقاق بحي البطيخ كما قال الرجل ، فلعنت غفلتي وحسن نيتي وغبائي ، وقلت معزيا نـفسي : هذا مقلب كبير يا حصرم ..ماذا أفعل ؟! هل يصدقني سيدي حلوم ؟! .

وعدت لحلوم ورويت له ما جرى ، فكذبني واتهمني بالاحتيال عليه ، وجاءت الشرطة وقادوني إلى سجن المدينة ، وزارني فيه حلوم ، وعرض عليّ العفو عني، وإخراجي من السجن على أن أقر بأنني أخذت المال ، وأنني محتال طماع غرّ بي الشيطان ، فأنكرت ذلك ، وصحت به : أنا لا أكذب ، لست سارقا ولا محتالا ، ولم يخدعني الشيطان ، اذهب لأخت الوالي

واسألها عن الثياب والجارية والغلام ؛ لتتأكد أنهم احتالوا عليك وخدعوك وسخروا مني .
ولما انصرف حلوم ، قلت لنفسي : بدأت المعركة مع شطار وزعران البلدة سريعا ، ولن يهدأ لي بال حتى التقي بتلك المحتالة ، ومكثت في السجن أكثر من ثلاثين يوما، ثم أخرجوني لأنه لم يثبت ضدي شيء ، وأنني ضحية احتيال ونصب، فذهبت لمعلمي حلوم وطلبت ما تبقى لي لديه من أجر، فطردني شر طردة ، وقذفني بالسرقة والاحتيال ، فعذرته فهو صاحب المال ، فعدت لغرفتي العتيقة أفكر بأمري وبطريقة أصل بها إلى المحتالة ، وبعد تفكير عميق وصلت إلى أن أعمل عند تاجر خز آخر لعل تلك المحتالة تكرر الفعلة فتقع بين يدي ، وفي سوق كبير عرضت نـفسي على التاجر عبد الرحمن المشهور ببيع الثياب المنسوجة من الابريسيم والديباج والحرير والمطرز أكثره بخيوط الذهب والفضة والمصمم لعلية القوم ، ومن كثرة ترددي عليه وترجيه وافق على استخدامي رأفة بي وشفقة على حالي وحاجتي مقابل درهم واحد في آخر كل نهار ، وقد غيرت لون عمامتي ولبست عمامة خضراء لها ذؤابة بين كتفيّ ، وغيرت ثيابي التي كنت ألبسها عند حلوم ، وبعد شهرين من الصبر والترقب جاءت المرأة وغلامها للدكان ، ولما تمحصتها وتأملتها أيقنت أنها غريمتي ، فكم فرحت لساعة الانتقام ! وفعلت بعبد الرحمن كما فعلت بحلوم ، ثم قال لي معلمي في النهاية : يا علي رافق هذه الجارية لقصر عمة السلطان ، واحضر ثمن الثياب منها وعد بالثياب التي لا يقع عليها الاختيار.
فوافقت على الفور ، وهيأت نفسي ، وأدركت أنهم لم يعرفوني لكثرة ما يرون من وجوه ، فحمل الغلام الثياب والجارية أمامه ، وأنا مشيت خلف الغلام كالأبله إلى أن وصلا للزقاق المعروف، ثم الباب الذي في وسطه ، فقالت لي المحتالة : انتظر هنا يا علي حتى تأذن لك عمة السلطان بالدخول ولتقبض المال وما يرجع من الثياب .
ودفعا الباب ودخلا ، فلما خرجا من الزقاق تبعتهما خفية ، ومن ثقتهما بأنفسهما لم يكونا ينظران للوراء ولو لحظة ، فسرت خلفهما حتى خرجا من حي البطيخ ، ومن درب إلى درب حتى وصلا لحي اللبن ، وأنا أسير خلفهما ، واجتازوا نصف درب الحي ودخلوا زقاقا واسعا

إلى حد ما ، وفي بيت من بيوت ذلك الزقاق اختفيا ، فعرفت دارهما معرفة جيدة وعدت لمنزلي ، وقد اشتريت في طريقي ملابس تشبه ملابس شرطة الوالي ، واستأجرت حمارا ، ولما هبط الظلام لبستها وركبت الحمار وسرت نحو درب اللبن ، ثم دخلت الحي نفسه ، وإلى المنزل المذكور ، ثم طرقت بابه فخرج الغلام يقول : من ؟!

فقلت بصوت هادئ رزين : أنا أحمل رسالة لسيدة البيت من عمة السلطان .

فقال الغلام والدهشة ظاهرة في نبرة صوته : عمة السلطان ! وماذا تريد السيدة المصونة منا ؟!

وكنت قد ربطت الحمار وقلت: دعني أكلم سيدتك . فدخل وأنا خلفه فنادى: يا زمردة هذا الرجل كأنه من شرطة الوالي يدعي أنه قادم من عند عمة السلطان !

فرحبت بي المرأة وهي في غاية الدهشة : ماذا تريد مولاتنا منا وما علاقتنا بعمة السلطان ؟!

فقلت لهما: أنت اليوم قد اشتريت لها ثيابا من عند البزاز عبد الرحمن .. ولم تصلها الثياب بعد

فردت والحيرة تملأ كيانها:أأنا اشتريت لها ثيابا ؟! ما هذا الكلام ؟ أأنت مجنون ؟!

فقلت: يا جارية تأدبي ، ألم تأت ظهر اليوم لدكان البزاز عبد الرحمن التاجر المعروف ، وأخذت ثيابا كثيرة لعمة الوالي أو السلطان، وكان معك هذا الرجل ـ وأشار لغلامها ـ وذهب معكم غلامه علي ، وتبعكم علي حتى دخلتم هذا البيت .

فصاحت : أبدا ، لم يحصل هذا ، أنا امرأة شريفة كريمة ، ولا أعرف الوالي ، ولا عمته ، ولكن من رماك علينا.

قلت لهما : قلت لكم الأجير علي تبعكما بعد أن شك في أمركما وأمر الزقاق ، فهات الثياب أو المائة دينار ثمنها بدون فضائح .. فأنا علي الذي تركتموني عند باب الزقاق ، وأخرجت مدية وضربت بها الغلام على عجل قبل أن يغدر بي .

فصاحت المرأة فقلت لها : لا داعي للصراخ ، أنتما محتالان دعونا نتفاهم ، فأنا لي عندكم ثأر، وذكرت لهم قصة غلام حلوم ، ثم قلت : فأنا ذلك الغلام أيضا، وأنا في انتظاركم منذ شهور عندئذ ظهر الخوف على المرأة ، وأيقنت أنني أعرف الحقيقة فتمتمت : حسنا نتفاهم يا سيد

علي .. وهذا المسكين ماذا نفعل به ؟! .

فقلت : لا شيء الضربة بفخذه وهي خفيفة ، فلن يموت .

وكان الغلام قد أغمي عليه من الطعنة برأس الخنجر، فاسعفته بخرقة لففتها على فخذه المجروح ، ولما انتهينا منه همست : ماذا تريد ؟!

قلت لها : ما هذا الغلام منك ؟ ردت : هو زوجي .

فقلت: هكذا أنتما تعيشان على النصب والاحتيال! .. فماذا تفعلان بالثياب التي تحصلون عليها من التجار ؟.

فقالت ربما بصدق : نبيعها لتاجر آخر بسعر أقل ؛ ولكن بـعد مضي زمن وما تريد منا الآن ؟

فأجبتها قائلا : أنا رجل فقير وغريب عن هذا البلد ، فأرغب بأن أكون شريكا

لكم في هذه المهنة ؛ ولكن قبل هذه الشراكة علينا أن نعيد ما أخذتموه من المعلم عبد الرحمن ، فقد حبست شهرا عما سرقتموه من المعلم حلوم ، فأنا دفعت ثمن القضية السالفة عن حضرتكم .

وبعد كلام وجدال طويل تعاهدنا على كتم أمرهم ، ولا أفشي سرهم ، ومشاركتي في العمل معهم ، ثم أعطتني المرأة المحتالة ثمن أقمشة عبد الرحمن لأدفعها إليه، وقبل الفجر غادرتهما على أمل اللقاء بهم مساءً لنبدأ حياة الشراكة، وفي الصباح كنت أضع ثمن بضاعة المعلم عبد الرحمن أمامه ، ولقد كان غاضبا عليّ أشد الغضب والحنق ، ويظن أنني سرقت المال والثياب التي لم ترق لمزاج الأميرة ، ثم قلت له معتذرا عن تأخري : يا معلمي وبينما أنا عائد من قصر عمة السلطان التقيت بصاحب لي ، فأبى وأقسم إلا أن يأخذني لبيته ويضيفني فبررت بقسمه.. وها هو حقك قد وصلك ، واسمح لي بترك العمل عندك يا معلمي لقد وجدت عملا آخر .

فدفع لي أجري كاملا وزيادة درهمين ، وودعته والعمال الآخرين ، ورجعت لمنزلي فنمت حتى العصر ، ثم سرت نحو حي اللبن ، وهناك لم أجد الزوجين والدار مغلقة ، ولما دخل الليل

قرعت الباب من جديد ، لا أحد يجيب ، ولم يعودوا، وتحدثت مع جيرانهم سائلا عنهم ، فأخبروني برحيلهم في ضحى اليوم ، ولا يعرفون إلى أين انتقلوا ، فأدركت أنني مغفل وأنهما هربا مني ، فهما لم يطمئنا لي فهمست لنفسي قائلا : ما زال لي عندهم دين ، وعليهم أن يسددوه حق ثياب حلوم ومكثي في السجن ثلاثون يوما.

فصرت أمر وأتردد على الحي مرتين في اليوم ، الأولى في الصباح ، والأخرى في الليل على أمل أن يرجعوا لمنزلهم ظنا منهم أنني قد نسيتهم ، أو يعودوا لأخذ شي من البيت قد نسوه ، وكان من عادتي وأنا أبحث عنهم في الليل أن ألبس ملابس شرطة حتى أوهم من يراني أتسكع في الشوارع بأنني من رجال العسس .



قال محدثنا حصرم بن سلام : أيها الأصدقاء وأنا عائد ذات ليلة من حي اللبن إلى منزلي ، والوقت يزيد عن نصف الليل بـقليل ، وقد كنت منهكا من المراقبة والسهر وقـلة الطعام ، وبينما أنا أجتاز أحد الأحياء سمعت صراخا عاليا فأصغيت أذني ، فكان مصدر الصراخ قريبا من المكان الذي توقفت عنده ، ولكني لم أعرف البيت الذي خرج منه الصوت ، فتسمرت في مكاني بالقرب من جدار منزل أنظر هنا وهناك .. لاشيء ، فقلت : لعله زوج يؤدب زوجته أو جاريته ، وكدت أمشي لولا أني سمعت حركة أقدام وأصوات تتحدث بصوت منخفض ، فأخفيت نفسي بعتمة الليل ، ورأيت بابا لأحد الدور قد فتح ، وخرج منه رجلان يحملان بينهما شيئا ملفوفا بثياب ، وسمعت أحدهما يقول : هل ماتت ؟! فرد الآخر : إن لم تمت سوف تموت من نزف الدماء ، فلما سمعت ذلك أيها الأعزاء اقشعر جسدي وخفت ؛ ولكن الفضول قوّى عزيمتي ، فظهرت أمامها فجأة وأنا أقول صارخا : أيها الشابان ما هذا الذي بين أيديكما .. من المقتول؟!

فوقع المقتول من بين أيديهما من هول المفاجأة ، ومن الخوف الموجود في داخلهما ، وحاولا الهرب ، فقلت بسرعة : تمهلا ولا تهربا ، فأنا أعرف البيت الذي خرجتما منه .

فتوقفا على الفور ، وقلت لهما : ما الأمر؟!

فقال أحدهما : من أنت أيها الرجل ؟ ! فقلت : أحد الناس شاهد جريمة قتل ، أريد أن أعرف القصة ، لعلي أغض الطرف عنكم . ثم صحت بهما : احملا الجثة للداخل لأسمع الحكاية .

فحملاها ودخلوا البيت وأنا خلفهم وأنا أحاذر من غدرهم ، فلما وضعوها على الأرض ، قال أحدهم : أيها الشرطي انتظر حتى اخبر أهل البيت بشأنك لعلك تتفاهم معهم .

وبعد قليل كنت أجلس أمام امرأة جميلة فاتنة ، وهي تقول : ماذا تريد أيها الشرطي من هؤلاء ؟! هذا رجل قد مات عندنا ونريد أن ندفنه .

فارتسمت على وجهي ابتسامة ساخرة وقلت هازئا : نعم .. نعم الميتة امرأة كما علمت وماتت مقتولة .. دفن في مثل هذه الساعة من الليل ! .. دعوني أسمع الحقيقة قد أعذركم وأكتم أمركم ، وأضفت قائلا " ولا أقوم بواجبي " موحيا لهم بأني من العسس .

فقالت المرأة : دعك من الحقيقة ، فهل لك بألف درهم تقبضها الآن وتنصرف وتنسى ما رأيت؟

كان طرحها جريئا ، فلزمت الصمت قليلا أفكر في الأمر وقلت لنفسي : لماذا أحشرها في موضوع كهذا ؟ والمقتول قد قتل ، ولن يعود للحياة ، وهذا رزق قد ساقه الله إليك يا حصرم خذ الألف واهرب يا فتى ، ثم هتفت قائلا : أيتها المرأة أنا لست أبلها..أما إذا دفعت لي مبلغا محرزا من المال أستطيع بسببه ترك الشرطة، وأعيش به بقية حياتي هادئا سعيدا قد أوافق .

فأظهرت الابتسام في وجهي : أحسنت أيها الرجل الأمين ، كم تحتاج ؟!

قلت وأنا مرتبك : عشرة آلاف درهم ! .. إنها في الحق مبلغ زهيد مقابل صمتي وخيانتي لواجبي .

فصاحت المرأة : أعطوه ما طلب .. احذر أن أراك مرة أخرى ، ولا تحاول أن تعرف القصة أو

تحدث أحدا بما سمعت وشاهدت .

فقلت وأنا انتظر الرجل الذي ذهب لجلب الدراهم : إذا كان المبلغ كما اتفقنا فلن تروا وجهي مرة أخرى ؛ ولكن إذا وجدته ناقصا فسأكون مع الفجر هنا .

وأخذت الأكياس التي تحتوي المال، ولما أصبحت في الشارع تنفست الصعداء ، ودبت الحياة في كياني كله ، وأسرعت مهرولا إلى سكني العتيق، ونسيت الأمر كله أو تناسيته ، ونمت نومة مليئة بالأحلام المزعجة والمثيرة ؛ ولكني شحاذ أخذت على قبول ما يعطى لي ، فاعتبرت المال شحذة ؛ ولكن بطريق أخرى.

ولما صحوت من نومي القلق أحصيت المال فوجدته عشرة آلاف درهم كما طلبت ، فحمدت الله وشكرته ، وظننت أن أبواب السماء قد انفتحت لي ، أنا الذي كنت أعمل في النهار وأكد مقابل درهم واحد أصبحت أملك عشرة آلاف ، وتذكرت المرأة الحسناء وحسنها والمرأة المقتولة والرجلين ، وعادت بي الذكريات إلى مدينة هاوان حيث التجارة والخمر والمعاصي والطلاق ، ووصلت في النهاية بأن أنسى الماضي كله ، وأبدأ من هذه اللحظة ، وأعمل عملا صالحا نافعا .

اشتريت ملابس جميلة ، وسميت نفسي أحمد ، واستأجرت منزلا جديدا يليق بثروتي الكبيرة ، واكتريت حانوتا واسعا لبيع الكتب ونسخها ، لقد عرفت عنها بعض الشيء أثناء وجودي في هاوان من بعض الأصدقاء ، ثم بدأت العمل بثلاثة نساخ فقط وأنا رابعهم ، فصرت أشتري الحبر والورق وأنسخ كتب القدماء ، وبدأ طلاب العلم وعشاق الورق يترددون على دكاني ، وما مرت عليّ سنة من الزمان حتى صار لي صلة بالأمراء والشعراء في مدينة سلهوب ، وارتفع عدد النساخ في حانوتي لسبعة ، كانت مغامرة جريئة فنسيت في غمرتها زمردة وزوجها والقتيلة والمرأة الحسناء وعبد الرحمن وحلوما ، وما انقضت السنة الثانية حتى أصبح يعمل لديّ أكثر من عشرين نساخا ، وأصبحت مشهورا بالوراق أحمد ، فاشتريت بيتا كبيرا ، وصار لي أصدقاء وأصحاب من علية القوم من أهل القصور والثراء ، ولا أنسى أن اذكر لكم

أنه أصبح لدي خدم وجواري ، وعدت لأيام هاوان ، عدت للشرب والقمار والفسق ، وكانت تمر بي ذكريات هاوان السوداء ولا ارتدع إلى أن كان أن دعيت لسهرة في بيت لأول مرة ، والذي دعاني شاب تعرفت عليه يدعى "رباب" ، والده من أغنياء سلهوب ، وكان الهدف من هذه السهرة أن له أصدقاء يرغبون باللقاء بي والتعرف على شخصي شخص الوراق أحمد ، وخلاصة الكلام أني وافقت ورافقته لتلك السهرة ، وأحسن صاحب البيت ورفاقه باستقبالي ، وجلسنا في غرفة فارهة على بسط نادرة ، وجاء الطعام الكثير وبعده أجود أنواع الفواكه ، ولما اشتد الليل دارت كوؤس المسكر على القوم ، وأمر مضيفنا باستدعاء ثلاث جواري مغنيات ، وهن في أحلى الثياب والحلي وبين يدي كل واحدة منهن عودا ؛ ليطربننا بأفضل وأجمل الأنغام ، فجلسن على مقاعد وثيرة أعدت لهن ، والغلمان بين أيدينا يزقون علينا بالشراب والتفاح ، ولما أمعنت النظر في المغنيات الثلاثة تذكرت أيها السادة المرأة التي أعطتني العشرة آلاف درهم ، نظرتها بعمق ، وحملقت هي بي بعض الوقت ، فأنا عرفتها أما هي بدت كأنها لم تعرفني .

ولقد تغنين بأعذب الألحان والأصوات حتى فقدنا الصواب ، وسمعت صاحبي "رباب" يقول: لقد كانت عند حسن ـ مضيفنا ـ جارية أجمل من كل هؤلاء وصوتها أرخم منهن ، ولكنها قتلت ولم يعرف قاتلها ، لقد ماتت منذ ثلاث سنوات، كانت ذات صوت رخيم ، عصفور أو بلبل يشدو على غصن ، وكانت حسناء بمعنى الكلمة حسن وبهاء نادر .. جارية مغنية يهودية ؛ ولكنها للأسف ماتت مقتولة ، وما زال في نفس صاحبي عليها حسرة ، فهؤلاء الجواري المغنيات ملكه الخاص ؛ ولأن والده لا يحب مثل هذه الأحوال فاستأجر لهن حسن بيوتا خاصة ، ووضع تحت أمرهن الغلمان ، وبنى هذا القصر للسهر والحفلات .

فلما سمعت هذا الكلام عادت بي الذكريات لسنوات مضت إلى يوم التقيت بهذه الجارية المغنية التى كانت تغني أمامنا بأحلى أشعار الغزل والعشق والخمر، تذكرت أنها قاتلة مجرمة ، فهتفت محدثا نفسي : إن سبب جلوسي مع هؤلاء الشباب الأثرياء ..المال الذي وهبتني إياه ..

لأنسى ما رأيت ولأنسى ما سمعت!

دارت بي هذه الأفكار واشتدّ برأسي الصداع ، وانصرفت الجواري المغنيات، ونمنا من الإرهاق والتعب في مكان اللهو والشراب، ولما استيقظنا من الهوى والفسق كانت الدنيا نصف نهار ، فعدت لبيتي منهك القوى والنفس .

المهم أيها الصديقان العزيزان أصبحت معروفا لدى الشباب الطائش الضائع؛ ولكن ذكرى هاوان والأفلاس والجارية القاتلة كل هذا كان يؤرقني ويقلق راحتي ، ولا أنسى الخوف من عقاب الله تعالى.

ودعانا بعد حين شاب آخر ابن نعمة - كما يقولون - من أصدقاء حسن إلى سهرة أخرى ، وبعد الأكل والشراب جاء موعد الغناء والشراب ، فظهرت مغنيات حسن الثلاث ؛ ليطربننا كالعادة ، وأثناء السهرة واستماعنا للغناء ضربت إحدى المغنيات زميلتها ، وأخذت عودها ورمته على الأرض بشدة، وتركت المكان مغضبة، فارتبك المكان ، وأخذت الجارية المضروبة تبكي وتصيح ، فاعتذر لها الشاب المضيف وحسن سيدها مما حصل ، وسمعته يقول : رحمك الله يا ريم !

وأخذنا بترك المكان ، ونحن أمام البيت قال لي رباب : هذه الجارية المغنية اسمها سمراء لها فترة من الزمن عصبية المزاج ، وتحدث المشاكل على أتفه الأسباب وأبخسها ، وأما ريم التي ترحم عليها أخونا حسن ، فهي المغنية التي وجدت مقتولة منذ سنوات ، وقد كلفته أكثر من مائة ألف دينار حتى تملكها ، وهي تتقن فنون الطرب والعزف على كثير من الآلات ، وهذه السمراء كانت تكرهها وتغار منها بسبب ولع حسن بها ، واعلم أنّ صاحبنا حسنا شك بأنها هي التي تخلصت منها وغدرت بها .

فقلت لصاحبي رباب : يا صاحبي سأفشي لك سرا .

فرد : ما هو؟! فقلت : سمراء مغنية صاحبك حسن هي التي قتلت جاريته "ريم" .

وكأن الشراب المسكر هو الذي دفعني لأحدثه بأحداث تلك الليلة الرهيبة ، وأطلعه على

سري دون وعي مني ، وبالطبع أيها الأعزاء الكرام لم أذكر له أنني قبضت عشرة آلاف درهم منها لألزم السكوت .

لما سمع رباب اعترافي عقب قائلا : لقد صدق حدس حسن ، لقد شك فيها حسن يا أحمد ؛ ولكنه لم يصل إلى دليل قاطع جازم ، وقال يومها معزيا لنفسه "خسارة واحدة خير من خسارة اثنتين " ذهبت ايامك يا ريم.

وبينما نحن نترنح ونتكلم بصوت عال في الطريق إلى بيوتنا دهمنا رجال العسس ، فأخذنا بسبهم وشتمهم ، فقادونا إلى السجن وطرحونا فيه ، سجن مدينة سلهوب، ولي معه ذكريات كما تعلمون منذ سنوات ، وفي الصباح مثلنا أمام القاضي ، وثبت علينا تعاطي الخمر والسكر ، فقضى بجلدنا أمام العامة في ساحة خاصة لإقامة الحدود ، فجلد كل واحد منا ثمانين جلدة ، فأصابني الخزي والعار في بلدة سلهوب ، ونفر الناس عن دكاني ، وتبين لي أن أهالي سلهوب لا يتظاهرون بالموبقات كأهل هاوان ، ويحافظون على تقاليد وعادات الدين والأحكام رغم اختلاطي بكثير من الفساق والفجار ؛ ولكن غاب عن ذهني أن هذا يحدث في أجواف المنازل البعيدة عن الأحياء في الضياع والقصور ، فصرت أتردد على المساجد مظهرا التوبة والندم لأغير من صورتي أمام خلق الله ، ولم أوفق بإصلاح ما بيني وبين الناس ، وأنا كسول لم أتعود على العبادات ، فقررت الرحيل عن هذه البلدة ، فجمعت ما معي من مال فإذا هو خمسون ألفا من الدراهم ، فبعت الدكان واتفقت مع ربان سفينة ليحملني معه ، ولما حان موعد السفر ودعت صاحبي "رباب" ، وسألته أن يسلم على صاحبه حسن ، ويعتذر له عن عدم توديعي إياه مباشرة ، فقال رباب : سيصل سلامك واعتذارك ، وقد كلم سمراء بما سمعته منك ، فأقرت على الفور ولم تنكر الأمر ، وقالت مقرة : منذ قتلها وأنا أحيا حياة مظلمة! فصدم حسن لاعترافها السريع ، وقد لزم البيت وحالته صعبة محزنة ، وتمنى لو أنه بقي على شكه ، ثم ودعني رباب قائلا : رافقتك السلامة إن عدت لسلهوب مرة أخرى لاتنسانا يا سيد أحمد .. هذه هي حكايتي الثانية يا أصدقائي الأعزاء وإلى لقاء آخر .

جزيرة الغراب

أكرمنا السيد حصرم بن سلام بالطعام الطيب ، وتحدثنا عن أخبار الأمراء والشعراء ، ثم جاء دور سماع الحكاية الثالثة من حكايات حصرم ، فقال أخي هانيء : ما عندك الليلة يا أخا الإسلام من أخبارك الجميلة والمسلية في ليالي الشتاء الحالكة ؟!

فقلت : لقد تركت يا سيدي سلهوب وركبت السفينة فإلى أين هذه المرة ؟

قال حصرم: يا إخوان ركبت مع القبطان شادور بن بهلول من ميناء مدينة سلهوب، وهو بحار كبير قديم أمضى عمره في البحار منذ الصغر ، مضت السفينة تمخر عباب البحر الضخم وهذه أول مرة منذ ولدتني أمي أركب البحر ، ووعدني الربان شادور أن يتركني في جزيرة جميلة من جزر البحر ، وركاب السفينة كانوا خليطا من البشر، وأكثرهم تجارا يحملون تجاراتهم ، فمن الركاب العربي والعجمي والهندي والتركي والرومي نساء ورجال وأطفال وشيوخ .

وانقضت أيام ونحن تحت رحمة ملك السماء والبحر ، ووقع في قلبي الحنين لقريتي جمانوسا واختاي ، لقد نسيتهما مع غمرة الأحداث ، وتمنيت أنني بالمال الذي جمعته عدت لبلدي القرية الهادئة الوديعة ، وأمضيت عمري بين قومي بدلا من هذه السفرة المجهولة ، عادت بي الذكريات إلى جمانوسا بلدتي الصغيرة الساكنة ، تذكرت الفقر والبؤس والحاجة ، ومع عواصف البحر وأمواجه العاتية نسيت قريتي، وأخذت أتأمل في الحكمة من خلق الله لهذا الكون وهذا البحر الكبير، وكبر العالم في نفسي ، وأتعجب من قدرة البارئ وحسن صنعه ، وبعد عشرين ليلة أو أكثر وصلنا إلى جزيرة سماها القبطان شادور جزيرة الطيور ، وأما أهل الجزيرة فيسمونها جزيرة الغراب ، وودعت القبطان وأعوانه وهو يقول : " في العام القادم بمشيئة الباري نلقاك هنا على هذا الشاطئ يا سيد أحمد ، فكل سنة نمر مرة واحدة على جزيرة الطيور أرجو أن توفق فيما اتفقنا عليه أيها الشاب الذكي "وضحك وضحكت ، ومكثت السفينة يومين أمام ميناء هذه الجزيرة ، فقدم تجار المدينة خلالهما وجرى التبادل بين الفريقين ،

وغادر السفينة رجلان كانوا من سكان هذه الجزيرة ، وكنت قد تعرفت عليهما ، وجرى بيني وبينهم حديث ونحن على ظهرها ، وقد علمت منهما أن أهل هذه الجزيرة لا يتكلمون اللسان العربي ، ولما انتهت عملية البيع والشراء وركب من شاء من السكان السفينة ، فقد حضر الرجلان وصحباني إلى مدينتهم وأنا احمل هيماني وجراب زادي ، وطلبت منهما مساعدتي للعمل في بلدهم ، فرحبا بذلك ووعداني خيرا ، واستضافني أحدهم في بيته ، وأكرمني هو وأهله بضعة أيام حتى تعلمت منهم بعض المفردات التي أستطيع بها التفاهم مع هؤلاء الناس ثم اشتريت بيتا صغيرا ـ فبيوت الناس في جزيرة الغراب حجمها صغير ـ وللحق فهي جزيرة هادئة وادعة ، وممتلئة بالأشجار المثمرة وغيرها ، فهي أرض خضراء قلما ترى فيها بقعة لا يعلوها اللون الأخضر رغم مساحتها الكبيرة ، وبدا لي أن سكانها قليلون بالنسبة لمساحتها ، وأكثر أهلها يعملون بالصيد والبحث عن اللؤلؤ في أعماق البحر ، وقسم كبير ولكنه أقل من الطائفة الأولى يعملون في الفلاحة ، الناس فيها يرحبون بالغريب مع الحذر الشديد منه ، تفرجت على أسواق المدينة سوقا سوقا ، وبينما أنا أتمشى في أحد الأسواق يوما سمعت مناديا يصيح ، وفهمت من الناس أن هناك مبارزة للفرسان في ميدان الجزيرة الكبير ، فسرت نحو المكان ، كنت أبذل جهدا كبيرا لأتعلم كثيرا من لغة هؤلاء الناس حتى أستطيع الكلام معهم وأفهم ما يقولون ويـفهمون ما أقول .



من الممكن أيها الاصدقاء أن أتعلم الفروسية ، وأصبح من فرسان الملك والجيش ، ولكن هذا ربما يستغرق وقتا طويلا ، وأنا لا أريد الاستقرار في هذه الجزيرة ، فأيّ شاب أنـهى تدريبه واعتقد أنه أصبح من الفرسان ، وقد أتقن ركوب الحصان ، وأجاد اللعب بالسيف والسنان ، ويرغب بإظهار ذلك أمام السلطان والناس ، فيعقد له ميدان ، ويتبارز مع الفرسان ؛ فإن شهد

له مبارزوه بالفروسية، وهبه الملك لقب فارس ، ويلحق بكتيبة فرسان السلطان، وثمة من يتعلم الفروسية ولا يريد الخدمة والعمل في كنف السلطان والجيش فله ذلك؛ ولكنه لا يسمى فارسا، ولا يمنح ذلك اللقب ، إنما فروسيته لنفسه فحسب .



قال حصرم: هذا دفعني للذهاب لميدان الفرسان ، فذهبت إلى ميدان المبارزة لمشاهدة الفرسان الجدد ، والأهم لديّ مشاهدة ملك الجزيرة ، فهذه أول مرة أفكر برؤية ملك ؛ لأن هذه المشاهدات تقوم تحت رعاية السلطان أو نائبه، فشاهدت ملكا شابا وعددا من الأمراء والأميرات ، واحتشد عدد كبير من الأهالي لمشاهدة المبارزات والمسابقات ، فهم يجدون متعة في التفرج على الفرسان وسباق الخيل ، دخل أحد الفرسان الجدد على جواد أحمر فإذا هو شاب دون العشرين ، واستعرض الميدان أمام خلق الله بعض الحين ، ثم برز له سبعة فرسان فلعب مع كل واحد منهم كرة ، ثم هجموا عليه مرة واحدة ، وأظهروا من فنون اللعب ما يمتع الأبصار ، ما بين هجوم ودفاع ، ومما يثير النفوس ، ويسلي القلوب ، وبعد حين توقف اللعب وتقدم قائد السبعة إلى جهة الملك وتحدث معه قليلا ، ثم تقدم للميدان فارس آخر ، ثم سبعة من الفاحصين ، واستمر الاستعراض حتى الليل ، ثم قفل الجميع لمنازلهم وأنا من ضمنهم .

كنت حائرا في المهنة التي أرغب العمل فيها في هذه الجزيرة ، أأعمل صيادا أم مزارعا أم أتدرب على الفروسية أم اشتري سفينة صغيرة أنـقل بها الناس والأشياء من جزيرة إلى أخرى ؟! وقبل أن أختار مهنة أمارسها مات عظيم من عظماء جزيرة الغراب، فخرجت مع الناس إلى المدفن ـ إذا هلك كبير عندهم يخرج كل أهل الجزيرة الصغير والكبير والذكر والأنثى لتشييع جثمان الميت ـ فخرجت مع الناس إلى ساحة كبيرة ، اصطفت فيها مواكب الفرسان جماعات جماعات ، وعند زوال الشمس أقبل الملك والأمراء والأميرات والكهنة ـ

فهؤلاء الناس يعبدون الأوثان والكواكب ـ وبعد طقوس مارسها كبير الكهنة وأعوانه تـقدمت مجموعة من الفرسان وحملوا التابوت ، وتبعهم الكهنة والحاكم وحاشيته وعامة الناس تمشي خلفهم حتى وصلوا المدفن الكبير ـ مدفن الملوك ـ ، وكان طائفة من السادة في الاستقبال ، فتقدمت مجموعة منهم فاخذوا النعش ودخلوا به المقابر السلطانية ، وتوقف الملك ومن معه خارج المدفن ، ثم دخل كبير الكهنة إلى المدفن ، وبعد حين يسير دخل الملك والأمراء والحاشية إلى المقبرة ، ومكثوا ساعة من الزمن ، ثم خرج الملك يحف به الكهنة والـفرسان ، وخاطب الناس ببضع كلمات ؛ كأنه يشكرهم ، ثم انصرف الجميع إلى منازلهم.

يحيط بالمـقبرة تلك سور ضخم مكون من الحجارة البيضاء ومرتفع أيضا ، ومن الصعب تسلقه ، وعلى سورها الجميل المرتفع تماثيل لعظماء الأسرة الحاكمة ومن دخل في حضانتهم ، ولا يسمح للعامة بدخول المقبرة البته ، كانت لدي رغبة بدخولها ؛ ولكن لم يسمح لنا بالدخول ، وبذلت جهدي لدخولها لمشاهدة قبور هؤلاء الملوك والملكات ؛ ولكن هيهات هيهات ، فـقفلت عائدا مع العائدين ، وكلي شوق لدخولها ، فصرت كل يوم أقصدها من الجهات الخالية من الحرس لعلي أجد منـفذا أدخل منه .

ولم يطل انتظاري يا إخوان ، فمن محاسن الصدف وأنا أدور حولها ذات نهار أبحث عن منطقة أتمكن من الدخول منها ، أو أستطيع أن أقفز منها على سورها ، وقد جلست على حجر انظر البحر بعد تعب من الدوران ، فالشاطئ أمامي ليس بعيدا ، ولا يوجد أحد في المكان ، أرض خالية بين جدار المقبرة والشاطئ الا من أشجار قصيرة منتشرة ومتباعدة في المكان ، تعطي للمساحة جمالا لطيفا ، وبينما أنا أجلس متأملا لأمواج البحر المتدافعة ؛ وفجأة برز أمامي شخصان ، خرجا من تحت الأرض ، وبين أيديهما كيس ، ولما فوجئا بي ، لاحظت الخوف في أعينهما فقلت لهما : ويلكما ..لا تخافا من أين خرجتما؟!

لاحظت أنـهما أدركا من لكنتي أني غريب ؛ فكأنـهما تشجعا ، فرد أحدهما بحدة خفيفة : خرجنا من بطن الأرض .. وماذا تفعل أنت هنا ؟! فهذا مكان غير مسموح لأحد بالجلوس

فيه لو لمحك الحراس لخسرت دنياك .

فرددت عليه بنفس الحدة والقوة ، وأدركت أنهما في خوف وقلق : وأنتما ماذا تفعلان هنا ؟! بل ما يوجد في داخل الكيس ؟!

وبدأ بيننا شجار ، وحاولا إرهابي وتخويفي ، فأصررت على معرفة سرهما، فلجئوا لإغرائي ببعض المال ، ورمى أحدهم قطعة ذهبية عليّ ، على أمل أن أنصرف ، فوقع في نفسي عندما رأيت بريق الذهب أنهما وجدا كنزا ، فطمعت بأخذ المزيد ومعرفة السر ، فزادوا القطع ، فأبيت أخذها قبل معرفة سرهما ، فلما رأيا عنادي ، حاولا تهديدي بالقتل ودفني في هذا المكان فقلت لهما متحديا : افعلا إن كنتما تستطيعان ذلك .

فتقدم أحدهما محاولا ضربي ، فقبضت عليه ورفعته للأعلى وألقيته على الرمل ، فصاح من شدة الضربة ومتوجعا ، فقال رفيقه بخوف : إنك وحش ..ماذا تريد منا ؟!

فقلت : أريد أن أعرف من أين خرجتما ؟ ما قصتكما ؟!

فصاح المضروب وهو يتوجع: أيها الغريب إذا ظللت في هذه الجزيرة فإني قاتلك!

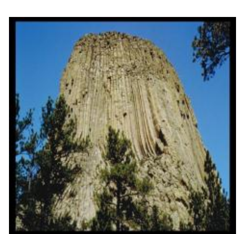
فرددت قائلا : سوف أشكوكما للملك هذه الليلة .

فلزما الصمت لحظات ، ثم قال الثاني : دعنا نتفاهم أيها الرجل ، سأقول لك القصة ، ولك ثلث ما في هذا الكيس على أن تقسم لنا بكل معبود تعبده على كتم أمرنا.

فهززت رأسي موافقا وقلت : هذا هو الكلام المقبول .

وفهمت منهما أنه إذا مات عظيم من أهل الجزيرة يدفنون معه كثيرا من أمواله وجواهره ، وهذان الرجلان قد حفرا نفقا يوصل للمقبرة ، فكلما مات شخص من هؤلاء السادة يصبر الرجلان بضعة أيام حتى تخف الزيارات للقبر الجديد، فيدخلون النفق ويستخرجان أموال وحلي الذهب ، ثم يسافران من الجزيرة إلى جزيرة أخرى لبيعه ، فهذه قصتهما ، فحدثتهما عن رغبتي لدخول المقبرة لمشاهدة قبور الملوك التي فيها ، فقلت لهما : أريد أن أدخل المقبرة من هذا النفق لأشاهد قبور هؤلاء العظماء .

وبعد قيل وقال اتفقنا أن يرافقني أحدهم أثناء دخولها ، دخلت مع أحد الرجلين النفق المخفي إلى المقبرة ، وخرجت من النفق لمشاهدة القبور الملكية ، وظل رفيقي في داخل النفق وهو يكاد أن ينفجر من الغيظ ، تفرجت على القبور ذات الأشكال الجميلة ، وبعض القبور مجسم عليها تماثيل لمن هو رميم بداخلها ، عرفت من صاحبي فيما بعد أن القبور المصور عليها التماثيل هي قبور الملوك والملكات .



قال سلامة: وهنا صارحنا صاحبنا حصرم بن سلام عن الهدف الرئيسي والغاية لاقتحامه هذه الجزيرة ومجيئه إليها ، فقال : أيها الأصدقاء لم يكن هدفي الوحيد مشاهدة هذه الحجارة والتماثيل ؛ ولكني جئت للجزيرة لإتفاق بيني وبين القبطان شادور ، لقد حدثني شادور أنه في قبر الملك الأول لهذه الجزيرة سيفا لا مثيل له في الدنيا، فأعود بكم للوراء قليلا ، فعندما تعرفت على القبطان شادور بن بهلول على ساحل مدينة سلهوب ، وجرى بيننا حديث ، ولما علم أنني أريد السفر لمكان جميل ، فيه مال كثير ، وبعد كلام واطمئنان ، قال لي : بما أنك رجل آفاق ، لا مال ولا أهل ، وتحب السفر والترحال في البلدان سأذكر لك قصة .

وتابع الكلام قائلا : أمر كل سنة مرة على جزيرة الطيور ، جزيرة أهلها بسطاء وملوكها آلهة ، وعندما يموت ملك أو سيد عظيم يدفنون بعض ماله معه وأشياءه الثمينة ، ولهم ملك مات قديما يسمى "برغوش" ، وهذا الملك كان إلها عظيما عند هؤلاء القوم ، ويملك الذهب والفضة والزمرد والياقوت والزبرجد ، وله سيف له بين الملوك شهرة ، مصنوع من الذهب والنحاس ، ومرصع بأثمن الجواهر والياقوت ، ودفن هذا السيف في قبر برغوش ، ذات مرة وأنا في ضيافة أحد الملوك جاء ذكر سيف الملك برغوش ، وكان هذا الملك مغرما بجمع التحف والأشياء النادرة ، فقال : ياشادور أنت رجل تتنقل بين المدن والجزر ؛ فإن جلبت لي

سيف الملك برغوش من جزيرة الطيور وهبتك مائة ألف ذهبية ، أغنيتك للأبد وأرحتك من ركوب البحر ، فوعدته يا أحمد بالحصول على هذا السيف النادر ، وبما أنك رجل مغامر سواح في الأرض فاذهب إلى هذه الجزيرة ، وحاول بذكائك وحيلتك الحصول عليه ، ويكون مال الملك بيني وبينك .

قال حصرم : بالطبع رضيت بعرض شادور، ومن أجل سيف برغوش دخلت جزيرة الغراب وهذا أيها الأصدقاء سبب اهتمامي في تلك المقبرة الملوكية ، وعليّ خلال عام كامل أن امتلك السيف ، وانتظر البحار شادور، فلما أصبحت بين القبور أخذت بالبحث عن قبر برغوش ، فلم أعرفه ، فعدت للنفق فوجدت الرجل في خوف ورعب شديدين ، فلما رأني قال : لقد تأخرت ، ظننت أنك وقعت بأيدي الحرس ، هيا نخرج بسرعة !

وخرجنا من النفق الخطير، ولما ابتعدنا عن المقبرة ودخلنا طرف المدينة قالا : ماذا فعلت ؟!

رددت عليهما : تفرجت على القبور والتماثيل المنصوبة فوقها .. وسمعت عن قبر الملك برغوش فأحببت أن أراه فلم أوفق إليه ، فهل بإمكانكما إرشادي إليه ، ولكم مني أجر ذلك ؛ لأني أنا أملك مالا كثيرا ، قلت لهم هذا الكلام لأني أدركت جشعهما وحبهما للمال فوعداني خيرا ، وصحبتهما لمسكنهما .

وفي صباح اليوم التالي صحبني أحدهم لتلك المقبرة ، وعرفني على قبر الملك برغوش ، ثم عدت لبيتي أجهز نفسي لفتح قبر برغوش واستخراج سيفه منه، وبعد يومين زرت الرجلين فلم أجدهما ، فقيل لي إنهما سافرا ، فهما يحبان السفر إلى الجزر القريبة ، فلهما مركب يتنقلان عليه ، فأدركت أنهما ذهبا ليبيعا ما سرقاه من قبر الأمير الذي مات مؤخرا ، فهتفت قائلا لنفسي : مهنة لطيفة وخفيفة .. سبحان الله ! والسبب في ذهابي للسؤل عنهما أنه خطر في بالي بأنهم قد يكونان أخذا سيف برغوش وباعوه ، فأحببت أن أعرف قبل نبش القبر ، والسبب الثاني التأكد من صدقهم نحوي وعدم خداعي ، والسبب الأخير محاولة إغرائهما بجلب السيف المذكور مقابل عدد من القطع الذهبية.

فلما لم أجدهما قررت انتظارهما فما زال هناك وقت طويل على موعدي مع القبطان شادور بن بهلول ، فصبرت نفسي حتى رجعا بعد ثلاثين يوما ، فظفرت بهما ، وقد انزعجا في البداية فطمأنتهما ، وقلت لهما : اعتبراني صديقا ، ولن أفشو سركم ، وأريد منكم خدمة ومساعدة .

ثم كشفت لهما الغاية التي أريد ، فقلت هامسا : سمعت أيها الأصدقاء أن في قبر الملك برغوش سيفا جميلا ، وأرغب قبل رحيلي عن جزيرة الغراب في الحصول عليه ؛ ليبقى معي ذكرى أفتخر بها أمام الأقران في بلدي عن بلدكم ، وبما أنكم مختصون بسرقة القبور فلا يستطيع أحد أن يحقق لي ذلك الا أنتما ، وعرضت عليهما مالا كثيرا .

وبعد ثرثرة حول سيف برغوش قال أحدهم : الأمر ليس سهلا .. رغم المال الذي تعرضه علينا ، ولا يستهان به .. فاسمع ما أقول.. نحن لما اكتشفنا هذا الكنز ـ وهو أخذ أشياء الأموات ـ فاعلم أننا نأخذ أموال الذين يموتون حديثا ، أما القبور القديمة بل التي يمر عليها سنة لا نستطيع فتحها .. فهؤلاء الناس بعدما يدفنون الميت ينتظرون سنة على موته ، ثم يؤتى بالرسامين والنحاتين بعد بناء قاعدة صلبة على القبر فيلونون القبر ، ثم يضعون تمثالا للميت على القبر حسب عظمته وقربه من السلطان .. فقبر برغوش أو سيف برغوش نحن سمعنا عنه ، ولكن الأمر ليس هينا ، فنحن إذا أردننا أن ننبش قبره قد نحتاج إلى كسر تمثاله، وهذا أمر قد ينكشف بسرعة فنخسر أنفسنا.

فقلت لهما أمام هذه الحقائق : أنا جئت من بلاد بعيدة من أجل هذا السيف، فلابد لكم من مساعدتي وتدبيري ، ولكم مني عشرة آلاف قطعة من الذهب ، فهذا مبلغ كبير ويستحق المغامرة .

فطلبا مهلة يومين للتفكير في الأمر ، فلما التقينا بعدها وافقا على مساعدتي على أن يقبضا نصف المال قبل العمل ، فدفعت لهما خمسة آلاف قطعة ، وكانت خطتهما الحفر تحت الأرض حتى يصلا لقبر برغوش ، وبعد تسعين يوما من الحفر اقتربوا من الوصول إلى قبر الملك برغوش ، وحدثت داهية قبل إنهاء الحفر أن أعلنت الحرب في الجزيرة ، فقد احتل جنود غزاة ساحل

الجزيرة ، وجاء موضع هبوطهم من جهة النفق الذي ندخل منه إلى المقبرة فتوقف العمل ، وتوترت البلد وخاف الناس ، وجرت المراسلات بين الملك الشاب والملك الغازي الذي طلب من أهل الجزيرة أموالا كثيرة ونساء ، وانتشر جنود ملك جزيرة الغراب في المدينة ، وخرج بضعة آلاف منهم إلى جهة البحر لمواجهة الغزاة والتصدي لهم ، واستعد الفلاحون والصيادون للدفاع عن أنفسهم وأهليهم ، وخلال المفاوضات بين الملكين حدثت مبارزات بين فرسان الفريقين ، ظهر فيها للملك ضعف فرسانه في مقاتلة هؤلاء الغزاة ، فبعد شهر من النزاع والتفاوض اتفقوا على الصلح على أن يدفع للملك الغازي وجنوده خمسمائة ألف قطعة ذهبية وألف امرأة ، وأخذت المواثيق والعهود من الملك الغازي بالانسحاب وعدم المجيء مرة أخرى للجزيرة ، ولما سويت الأمور انصرف الغزاة بالمال والسبايا ، وبعد زمن قصير عاد الهدوء للجزيرة كأن شيئا لم يقع ولم يكن ، وتعجبت لقبول هؤلاء فقد أموالهم ونساءهم بهذه البساطة واليسر ، فجاء الجواب سريعا "نفقد بعض المال ولا نفقده كله ، ونفقد ألف امرأة ولا نفقد آلاف الرجال وكل النساء ، والنساء تذهب عن طيب خاطر! "وتابع محدثي قائلا : فهذه أمور طبيعية في الجزيرة بل في كل الجزر المحيطة بنا ، أحيانا يتبارز الملوك مع الملوك الغزاة ، ومن غلب صاحبه يشرط عليه ما شاء، ولا تتقاتل الجنود مع بعضها البعض .

قال سلامة وأخبرنا صاحبنا حصرم بن سلام : أن هذه الحرب أخرت إخراج سيف الملك برغوش ما يزيد عن شهرين ، ولما أصبح السيف بين يديه فتأمله جيدا فوجده كما وصف له ، ولفه بخرقة ناعمة ، ودفع للرجلين ما تبقى لهم في ذمته ، وهجر الرجلين ، ومكث ينتظر القبطان شادور ، وفي الزمن المحدد تقريبا وصلت سفينة شادور سواحل جزيرة الغراب، وكان بينهما لقاء جميل وممتع ، وودع حصرم معارفه في الجزيرة ، وقد احتفى شادور بصاحبه أحمد احتفاء كبيرا ، ولما نظر السيف أصابته رعشة ودهشة ، وهذه حكاية الشيخ حصرم بن سلام في جزيرة الغراب .

حكاية الكاهن

أيها الكرام ! لما التئم شملنا ذات ليلة عند صاحبنا الجديد حصرم بن سلام ، وفرغنا من ملء البطون بالشراب المباح والطعام الطيب ، جاء دور ملء الذهن والأذن بالاستماع والكلام ، فحمدت الرحمن وصلينا على النبي العدنان صلى الله عليه وآله وسلم والصحب الكرام ، فقلت : وصل بنا الحديث يا سيدي حصرم عندما وضعت السيف الثمين بين يدي القبطان شادور بن بهلول على متن سفينته العملاقة .. قل لنا الآن ما الذي جرى بينك وبين شادور القبطان .

سكت برهة محدثنا ثم تنفس حصرم نفسا عميقا وقال : جملة حقائق لابدّ من التذكير بها ، فالموت حقيقة وحق ولابدّ منه بأي صورة كان ، والوفاء نادر بين الناس إذا تعاملوا بالمال والدينار ، والطمع كأنه طبع في بني آدم ، حاول شادور حفظ السيف عنده ، فقلت: يا صاحبي الحذر واجب ، وقد دفعت مبلغا كبيرا للحصول عليه ، والدنيا حياة وموت ، فلنذهب سوية إلى صاحبك الملك الذي حدثتني عنه ، والذي كلفك بالحصول على السيف .

فأظهر الغضب مني وقال : ويلك ! .. ألا تثق بي ؟!

فاعتذرت له عن سوء فهمه ، وذكرت له قصصا عن الغدر والخيانة والجشع والنفس الأمارة بالسوء ، والصحيح أنه أصبح لديّ خبرة ونظر ، وقد تكون فراسة، فقد رأيت الغدر والطمع في لمعان عينيه عند أول مرة لمست يداه السيف ؛ لذلك اتخذت جانب الحذر والحيطة ، والمال أيها الأعزاء يفرق بين الأخوة الذين هم من صلب أب واحد ، فكيف بيني وبين شادور؟! فقد التقينا عرضا ، وجرى بيننا الاتفاق الذي تعلمونه ، ومضينا في البحر أياما وأياما ، وفي ذات ليلة دافئة هادئة بعد عشاء لذيذ شعرت بالنعاس القوي الشديد ، فصعدت لظهر السفينة حتى أنام فنمت سريعا ، وما كدت استغرق في النوم حتى استيقظت على أيدي عدد من الرجال يحملونني ويلوحون بي في الهواء ، ثم قذفوني إلى البحر من غير شفقة ولا رحمة حتى أنني لم أتمكن من الصراخ والصياح ، كنت أتوقع الغدر من شادور ؛ ولكن ليس بهذه

القسوة ، ومن سوء حظ شادور اللعين وأعوانه أني أضع السيف الصغير والثمين مشدودا على فخذي ، ولا أحفظه في متاعي ، والهيان على وسطي ، وقد حصل بفضل من الله ربي أن تعلمت العوم في جزيرة الغراب ، فلما ارتطمت بالماء استيقظت حواسي كلها ، وكذلك حبي للحياة ، وكنت قد صحوت من النوم وهم يحملونني ليقذفوا بي إلى الماء ، فلما خفت الصدمة بدأت أعوم في وسط البحر الهادئ ، ثم تركت نفسي للأمواج تتقاذفني كيف شاءت؟ .. فما أن ظهر نور الصباح إلا وأنا أجد نفسي ملقى على الرمال .. فعمري لم ينته بعد ، وكنت في غاية الإنهاك بالطبع ، فنمت من التعب على شاطئ البحر .

فما استيقظت أيها الأصدقاء إلا وأنا بين يدي رجال يحملونني إلى غرفة صغيرة ، وحضر كاهن الجزيرة الصغيرة ، وتمتم عليّ بكلماته التي لا أفهمها ، وبعد أيام عادت لي قواي الذهنية والعضلية ، واستردت عافيتي ، وعلمت أنني في جزيرة في وسط البحر اسمها " السمكة الحمراء " ، وقد فاجأني القوم بتنصيبي ملكا عليهم ؛ لأن ملكهم قد وافته المنية منذ أيام ، وأول غريب يهبط الجزيرة بعد وفاة الحاكم يجعلونه عليهم ملكا ، يحكم بينهم ، ويحل لهم مشاكلهم ، والحقيقة التي بانت لي بعد زمن قصير أنّ الحاكم الفعلي لهؤلاء الناس هو الكاهن الأكبر، ووجدتهم كفرة يعبدون شجرة ضخمة تقع في وسط الجزيرة ، فهي الإله الذي يقدسونه ويعظمونه ، ويحيطونها بالتبجيل والتعظيم والاحترام العجيب ، والكاهن هو الذي ابتدع لهم الملك الغريب حتى لا يختلفوا ، ويتصارعوا على الحكم ، رضيت بالأمر أو استسلمت للأمر ، وأصبحت ملكا على هؤلاء الجهال عبدة الشجرة ، وتعلمت لسانهم ، وزوجني الكاهن امرأة منهم ؛ لتقوم على خدمتي ورعايتي وصنع الطعام لي ، وتنقل أحوالي أيضا للكاهن الأكبر ، كنت ملكا يا أخي هانيء ! ويا أخي سلامة ! من غير حرس أو وزراء أو جنود كما في بلادنا ، وكأن الملوك السابقين لم يفعلوا أمرا كهذا ، فوقع في نفسي أن أصنع مملكة حقيقية هناك ، ملك وزراء حرس وجنود وشعب ؛ ولكني اكتشفت أنّ هذا الأمر يحتاج إلى وقت طويل ، وقد يسبب لي الصدام مع الكاهن الأكبر الذي هو مشغول بشهواته ،

فهو مشغول بالزواج ، ففي مطلع كل بضعة أشهر يزفون له امرأة جديدة ؛ فإذا حملت خلال نصف سنة تبقى على ذمته حتى تلد ، وفي اليوم الذي يتزوج فيه يترك امرأة لم تحمل منه ، فإذا ولدت المرأة التي تحمل منه ولدا بقيت عنده للأبد ، وأما إن وضعت أنثى تركها زوجة لغيره ، وعلى الزوج الجديد تربية البنت نيابة عن الكاهن اللعين .

اعلموا يا أصدقائي أن أغلب طعام هؤلاء الجهال أكل السمك ، وقليلا من الخضار والأعشاب ، وأن هذا الكاهن مجرم كبير ؛ فإذا غضب على أحد الناس ذكرا أو أنثى رموه في البحر طعاما للأسماك ؛ لتطعمهم الشجرة الغاضبة لغضب الكاهن سمكا سمينا ، العجيب أن هذه الجزيرة معزولة عن الجزر الأخرى ، لا يوجد فيها قوارب ، ولا تمر عليها السفن ، فهم لا يعلمون أن هناك مدنا حولهم ، وأن بشرا في الدنيا مثلهم ، وأمام هذا الحبس ورؤية هذا الجهل المطبق على هؤلاء القوم ـ ما عدا الكاهن اللعين فإنه فطن خبيث ـ فكرت بقتله وإراحة هؤلاء الناس من ظلمه بطريقة ماكرة لا يشعرون بأني قاتله ، فتسألت من سيصبح الكاهن لهم بعد زواله؟! فعلمت أن له مساعدين يختفون في كهف من كهوف الجزيرة ، لا يخرجون منه ألبته ، فإذا مات الكاهن خرج أحدهم خليفة له ، وهؤلاء الخلفاء لا يظهرون للناس، ولا يجتمعون إلا بامرأة تقوم على خدمتهم ، وحاولت الوصول لهذه المغارة فخاف الناس من ذلك ثم حاولت أن أصل إليها عن طريق الكاهن فنهرني وقال : اهتم بأمرك ، ومتع جسدك ، ولا تتدخل في شأن الآخرين ، فعدت للهدوء والصمت ، وكبر في نفسي سفك دم هذا الكاهن سرا في غفلة من قومه ، فقررت البحث عن أفعى سامة ، واستخلص سمها وأدسه في طعامه أو شرابه .

ولقد تمنيت وأنا في تلك الجزيرة المعزولة عن العالم لو أنني أعرف ضروريات ديني لأنقلها لهؤلاء الجهال ، فأنا تعلمت قليلا في قريتي جمانوسا عند الشيخ حماد ، ولفقري المدقع طردني الشيخ فعملت بالرعي والحقول ؛ فلذلك علمي بالشرائع ضئيل حتى عندما كنت وراقا ـ كما تعلمون في مدينة سلهوب ـ لم أهتم بكتب الشرائع وما فيها من العلم والخير ، كنت أترك ذلك

للعمال عندي حتى الصلاة ـ أيها السادة ـ لم أكن أتقنها ، كيف غيرها من أمور العبادة ؟ لقد تمنيت حقيقة وأنا مع هؤلاء الجهال لو أنني تعلمت بعض الشيء عن ديني لأعلمه لهؤلاء الجهال الذين يعبدون شجرة لا تضر ولا تنفع .

كما قلت لكم قدح في ذهني أن أتخلص من الكاهن لأعرف أسرار الجزيرة والكهف الذي يختفي فيه مساعدو الكاهن الغامض ، تابعت الكاهن ووضعته تحت مراقبتي ، فلم استدل منه على الكهف ، والناس لا يتحدثون عن الكاهن إلا برعب ووجل ، ومن سألته سوألا حول الكاهن لم يعد يقترب مني ، بل يهرب عندما يلمحني من بعيد ، له سطوة غريبة عليهم ، فتسألت أكثر من مرة لماذا أنا ملك على هؤلاء ؟! حتى المرأة التي زوجوني إياها لا تتكلم بشيء عن ذلك ؛ وإذا سألتها ارتسم الرعب على وجهها ، وكنت أرى أنها عين الكاهن عليّ ، وكانت تغيب عني كثيرا ولا أهتم بذلك ، وقد شاهدت مشهدا يوما ما ، جعلني أفكر فعلا بقتل الكاهن الأكبر غيلة ، كنت يوما أجلس في قصري الصغير الذي هو عبارة عن كوخ على صخرة كبيرة ، وأهبط إلى الأرض بسلم مصنوع من جذع شجرة ، جاءتني زوجتي تدعوني لمقابلة الكاهن ، فذهبت على الفور ؛ فإذا هو يقاضي شابا تقاتل مع رفيق له ، وهما يصيدان السمك ، ولما ذكر كل واحد منهما ما عنده حكم على أحدهما بالموت لأنه سبّ الآلهة أثناء الشجار ، وطلب مني تنفيذ الحكم الصارم بالشاب ، وقام رجال بشد الضحية بالحبال ، وتدخلت وحاولت العفو عنه ، فصدني الكاهن اللعين ، وطلب مني أن لا أتدخل في قضائه ، ولا في شأن لا يهمني ، فتشاجرنا فغضب عليّ ، وأمر رجاله بتوثيقي في الحبال ، وحبسي بضعة أيام في كهف سد بحجارة ضخمة .

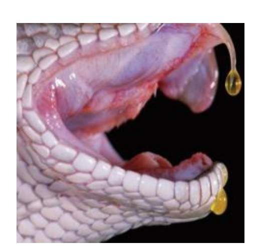
ثم عفا عني لما استعطفته ، وقبلت يديه ، واعتذرت له أمام أهل القرية ، لقد أذلني اللعين مذلة لم أنسها لليوم ، فكبر كرهي وحقدي عليه ، وتعجبت لماذا لم يقتلوني كما قتلوا ذاك الشاب الذي دافعت عنه؟! فقد رموه في البحر لتأكله الأسماك إرضاء للآلهة ، صبرت أياما ثم أخذت انطلق في البراري باحثا عن ثعبان سام أو ثعابين حتى تيسر لي ذلك ، وجربته في بعض

الحشرات والسحالى ففتك بها فتكا سريعا ـ ولي معرفة بالافاعي عندما كنت راعيا في قريتيي القديمة ـ وقررت أن احتفظ به للوقت المناسب ، وأدسه في بيت الكاهن اللئيم لعله يلدغه ويقضي عليه، ثم هيأت نباتا ساما من خانق الذئب السام القاتل للذئاب والحيوانات للوقت المناسب أيضا ، وبدأت أفكر بوسيلة أوصل بها السم لقلب الكاهن الأكبر ، ففكرت أن أصنع وليمة كبيرة للكاهن مبينا له اعتذاري عن إساءتي لشخصه الكبير ، ومرضيا لغروره الكبير أيضا ، ودعوته فوافق ، وأحضر لي الصيادون سمكا كثيرا ، وقمت بشويه على النار ، وحضر الكاهن ورجاله الخمسة وأكلوه ، وشربوا شرابا يصنعونه من أشجار تسكن الجزيرة ، واعتذرت للكاهن مرة ثانية عن خطئي وغفلتي نحوه ، فأبدى عطفه وعفوه عني ، ولم أضع له السم ، أردت أن يطمئن لي أكثر ، ويرتفع شكه عني ، هو ورجاله الخمسة ، ويقتنعون أني رضيت بالأمر الواقع ، وقدر لي أن أعرف من الصيادين أن أيّ صيد غريب فهو للكاهن ، فهم عندما يصيدون كلب بحر فهو لسيد الجزيرة المطلق ، لا ينازعه فيه أحد ، هو أيها الأصدقاء الملك الحقيقي لهذه القرية ، وما عرفت الفائدة والحكمة من وضعي ملكا على هؤلاء الناس الجهال ؟! حتى وأنا مسجون ظللت ملكا عليهم لم يخلعني اللعين ، وسوف أظل ملكا حتى الموت ، ملكا محبوسا في الجزيرة ، فهؤلاء الناس معزولون عن العالم ، ولا يعرفون السفن ولا القوارب .

ذات يوم وأنا أسير قرب شاطئ مهجور لا يستعمله الصيادون وجدت جثة ممددة عليه ؛ فإذا هي جثة أنثى فتاة صغيرة ، وعليها ملابس جميلة وزاهية ؛ كأنها عروس في ليلة فرحها، فدرت حولها ، وأخذت في تقليبها ، وجسست نبضها؛ فإذا هي حية ، فدلكت عنقها وصدرها ونقلتها إلى ظل شجرة ، وحاولت معالجتها فلم أفلح ، فأحضرت لها الكاهن الأكبر لعله يستطيع مداواتها ، فأمر بنقلها إلى قصره ، وتمتم عليها بشعوذته ، وسقاها شرابا عنده يعالج به مرضى الجزيرة ، فاستيقظت الفتاة وكانت تهذي ولا ندري ما تقول ، فأمر الكاهن نساءه أن يغيرن ثيابها بثياب دافئة وإشعال النار في مكان نومها ، وأمر كذلك بإطعامها من لحم الأرانب

ومرقها حتى تسترد عافيتها ، وتذهب عنها الحمى التي أصابتها ، وجود هذه الفتاة في الجزيرة أجل من تنفيذي لحكم الموت الذي أصدرته ضد الكاهن ، بعد شهر عادت للفتاة نضارة ووجهها وجمالها الآخاذ ، وكانت تتكلم ولم نكن نفهم عليها ، فأخذت تجتهد بتعلم لغة أهل الجزيرة ، وما كادت تمضي بيننا فصلا من فصول السنة حتى أصبحت تتكلم بلسان القوم ، وعرفت أين تعيش ؟! وكنت بشوق ـ أيها الأصدقاء ـ لمعرفة حكايتها ، وما الذي رماها على هذه الجزيرة في وسط البحر الكبير ؛ ولكن قبل أن أسمع حكايتها وأجتمع بها ، نقل لي أن الكاهن يريد أن يتزوج هذه الفتاة ، وأنه سيتزوجها زواجا أبديا ؛ لأنها هدية من البحر له ، فنزل عليّ هذا الخبر كالصاعقة في الليلة العاصفة ، وصحت : هذا الرجل يدفعني لصرعه كأنه سيموت بيدي هاتين !

كان من عادة الكاهن ورجاله الخمسة أنهم يخرجون عند انتصاف النهار يوميا إلى الشجرة المعبودة من دون الله فيطوفون حولها ، ثم يهجم عليه العامة يتلمسونه لأخذ بركاته ، ثم يعود لقصره الخشبي ، في هذا الوقت زارتني الفتاة الغريبة ، وطلبت مني إنقاذها من الكاهن ، فعطفت عليها وشجعتها على قتل الكاهن ، ودفعت لها السم الذي هيئته للفتك بالكاهن ، وقلت لها : اظهري رضاك بالزواج منه ، ثم ضعي له هذا السم في طعامه ، ولسوف أدافع عنك ولا تخافي وأنا معك .



وعادت خفية لمنازل الكاهن ، وقد علمت منها أن الكاهن حذرها من الاجتماع بي ، والفتاة شجاعة كما ظهر لي ، وبعد أيام يسيرة استدعاني الكاهن الأكبر للاجتماع به ، واختلى بي وكان يرقد تحت الفراش فإذا به يقول : سأموت يا أحمد فقد اقتربت النهاية ، فالسم الذي دسسته لي سيؤدي مفعوله ، وسأقول لك الأسرار التي كنت تبحث عنها وتسعى إليها ، اعلم أنني لست

من هؤلاء القوم ، أنا مثلك غريب عنهم ، أنا صياد من مدينة النجق خرجت وخمسة من الصيادين في رحلة صيد ، فرمت بنا عاصفة إلى هذه الجزيرة ، وكان الناس هنا يعتقدون أن كل قادم إلى هنا من البحر إله ، فينصبونه سيدا عليهم يعبودنه مع الشجرة العملاقة أي أن الملك هو نائب الإله أو لسان الشجرة ، ومات ملكهم قبل مجيئنا بأيام ، ولما وصلنا إليهم جعلوني ملكا عليهم ، ورفاقي مساعدون لي ، فصاروا يقدسوننا والشجرة ، ولما استقر بنا المقام هنا وفهمت طباع وصفات هؤلاء الناس ولغتهم اخترعت لهم منذ خمسين عاما الكاهن الأكبر ، وجعلت أحد الصيادين الذين جاءوا معي ملكا مكاني اسما مثلك الآن ، دون الفعل الذي كنت افعله ، وبالتدريج نقلت التقديس لشخص الكاهن ، وتشاجرت مع رفاقي الصيادين فتخلصت منهم خفية ودفنتهم في كهف ، وأخبرت الناس أنهم اختفوا في كهف حتى يصبحوا بعدي كهانا، ونسيهم الناس ، وصرت أضع لهم الشرائع المناسبة ، وأنكح نساءهم وبناتهم ، ويفعل الملك صاحبي مثلي إلى أن مات ، فأرسلت لنا الآلهة رجلا فنصبناه ملكا بدون ملك ، وانفردت بالسلطة والحكم عليهم ، ووضعت لهم طقوسا لعبادتي وعبادة الشجرة ، وكل ستة أشهر يزفون لي امرأة ، وأتخلص من واحدة لم تحمل مني أو أنجبت لي بنتا فيقوم أحدهم بالزواج منها ـ من زوجة الإله ـ ويربي هذا الزوج ابنة الإله ، ومنذ أن جئت إلى هذه البلدة ، وقد تزوجت مئات النساء فلم ارزق بولد ذكر إلا مرة واحدة ، وكم فرحت به ! وبدأت أعده ليكون الكاهن الأكبر ؛ ولكنه مات بعد عشر سنوات ، فحزنت عليه كثيرا ، وبالرعب وبالتقديس ما زلت إلها لهؤلاء الناس ، ومات الملك الذي سبقك ، فجئت أنت فجعلناك ملكا ؛ لاعتقاد هؤلاء أنّ أيّ شخص يأتي من البحر فهو إله قادم إليهم ، وهذا الأمر لا يضيرني ، ولا يحد من سطوتي عليهم ، وأنا بينهم منذ خمسين سنة ، فهذه قصتي يا أحمد التي سعيت لمعرفتها منذ وطئت قدماك هذه الجزيرة .. والآن أقول لك وداعا .. واعلم أن القاتل يقتل ولو بعد حين ، فهذا جزائي ، واستلم مكاني ، وسيأتي من يقتلك كما قتلتني!

وعلم الناس بشدة مرض الكاهن، وأنه ولّى الكهانة للملك أحمد، ولما فاضت روحه ألقوه

للبحر ليمدهم بمزيد من الأسماك والطعام ، فهؤلاء القوم لا يعرفون الدفن .

ورث حصرم بن سلام قصر الكاهن ، وحرر نسائه من قيده ، وأخبر الناس أنه ملك وليس كاهنا ، فانزعج الناس أول الأمر وأصابهم الذهول ، وتيقن لهم أنّ الكهنة المختفون في الكهف لن يخرجوا ، وكشف لهم أحمد خداع الكاهن رويدا رويدا ، وأنه بشر مثلهم ، وأن وراء البحر أناس مثلهم يعيشون في الدنيا ، ولما هدأت الجزيرة بعد هذه الأخبار استمع حصرم لقصة الفتاة التي ساعدته على قتل إله الجزيرة ، فقالت : يا سيدي الطيب لقد أنـقذتني من هذا الكاهن اللعين .

فابتسم لها حصرم قائلا : بل أنت التي أنقذتني منه ، وأنـقذت هؤلاء الجهال منه وحدثها عن نفسه بعض الوقت ، ثم طلب منها أن تسمعه قصتها ، وما الذي رمى بها على هذه الجزيرة ؟

فقالت : أنا أميرة بنت الملك بوقة ملك بلاد السنجاب .

قطع حصرم كلامها قائلا وهو يتنهد : عندما رأيتك أول مرة على رمال الجزيرة وقع في نفسي أنك ابنة عظيم .. بل ظننتك حورية من حوريات البحر تابعي الحديث أيتها الأميرة !

فتابعت الأميرة الكلام قائلة : يا سيدي الملك أحمد .. خطبني أمير من أمراء بلادنا فرفضته ونسيت الأمر ، والتقيت بشاب من عامة الناس ، وجرى بيننا إعجاب وحب ، فخطبني من أبي الملك ، وبعد ضغط شديد مني على والدي زوجني من الشاب الذي اخترته لنفسي ، وفي ليلة الـفرح والاحتفال بزواجنا حدث أمر ، فمن عادات وتقاليد بلادنا أيها الملك بعد الانتهاء من الحفل الشعبي في ساحات المدينة أن يركب الـعروسان في سفينة صغيرة البحر ساعة من الزمان ، فنحن قوم نعظم البحر ونتبارك به كهؤلاء الناس الذين تحكمهم ، وهيئت لنا السفينة ، وركبت أنا وزوجي المختار السفينة وخمسة من البحارة الذين يخدمون والدي الملك ، ودخلنا الماء ليبارك زواجنا ، وتعمقنا في البحر ، وعند العودة غدر بنا البحارة ، فألقوا صاحبي في البحر ، وعلمت أنى مخطوفة ، وأن هؤلاء البحارة الخونة سيذهبون بي إلى الأمير الذي خطبني سابقا ورفضته ، وظننت أنّ الأمر قد انتهى ، فقادوني إلى جزيرة ينتظرني فيها الأمير،

وبعد تـفكير عميق قررت الهرب منهم ، ثم العودة لأبي حتى ينتقم منهم جميعا ، ولما لاح لي ساحل هذه الجزيرة من بعيد قفزت إلى الماء مظهرا لهم أني أفضل الموت على الذهاب معهم ، وسبحت نحو ساحلكم ، وأنا فتاة تتقن العوم ، وقلت إن البحر سينقذني منهم ، فنحن قوم نعظم البحر، وهو أحد الآلهة التي نـقدسها يا سيدي الملك ! فظللت أعوم حتى وصلت إلى الشاطئْ فأغمي عليّ والباقي تعرفه ، وأنا لا أعرف ماذا جرى لزوجي ؟! هل نجا مثلي أم غرق في البحر؟ فهو من فرسان البحر، ولا أدري كيف سأعود لبلادنا أيها الملك ؟!.



أخبرنا حصرم فقال : فلما سمعت حكايتها أشفقت عليها ، ووعدتها خيرا ، وقلت لها إذا تيسرت لنا سفينة آمنة سنسافر معا إلى بلاد السنجاب ، ورتبت مع نـفسي لحرق الشجرة العملاقة التي يعبدها هؤلاء الناس ، فاستيقظوا ذات ليلة على ارتفاع اللهب من الشجرة العملاقة ، وجاءوا إلى قصري فزعين وهم يصيحون : الإله احترق !!..الإله احترق!! فصحت قائلا: إله لا يدافع عن نفسه كيف يكون إلها؟! إله لا يطفىء نفسه ، كيف ذلك ؟! ثم أجبت قائلا : لابدّ أنها شجرة كباقي الشجر، وذهبت معهم إلى الإله الذي كان يحترق ويحترق ، وحاولوا إطفاء النار بالماء فصحت قائلا : ويحكم إله لايطفي نفسه! ..دعوا هذا الإله سنبحث عن إله آخر .. من صنع هذا الإله أيها الناس فليصنع لنا إلها أخر؟!

فبدأ المستمعون يتهامسون ويقولون : ماذا يقول هذا الملك ؟!!

فصحت بحرارة وقوة وحماس : أيها الناس لنعبد الإله الذي صنع هذه الشجرة العملاقة ! المهم أيها السادة دفعتهم لعبادة إلهنا ربنا الله سبحانه ، ووجدت نفسي أدعو هؤلاء الناس إلى الإسلام الذي لا أعرف عنه الكثير .. آه!! كم ندمت على تقصيري في معرفة المزيد عن إسلامي ، ولو حفظت عددا من السور القرآنية لأفدت هؤلاء الناس بها ، وقلت إذا قدر لي

العودة لبلادنا سأتعلم الدين الصلاة والصوم .. من المهم أن كلماتي بدأت تجد صداها في هؤلاء الأغبياء ، وبدءوا يعتقدون بوجود إله أكبر لهذا الكون.. إله السموات .. إله الأرض .. إله الشجر .. إله السمك والبحر ..إله كل شيء .. دعوتهم للصلاة لهذا الأله الأعظم ، علمتهم الدعاء والركوع والسجود ، ودعوته في السراء والضراء .

واعلموا أيها الأصدقاء أنّ رحمة الله واسعة وعظيمة جدا جدا، فكأن الله تعالى استجاب لدعاء أهل الجزيرة ، فهبطت على جزيرتنا سفينة تائهة في البحر، فاستقبلت أهل السفينة في فرح كبير ، وفرحت أكثر عندما وجدت أنّ أكثر ركابها مسلمون يعرفون شعائر الإسلام والدين ، وبعد أيام قرر قبطان السفينة بالرحيل ، وتطوع شاب بالبقاء في الجزيرة لدعوة الناس لدينهم الجديد ، ويعلمهم سورا من القرآن ، وعرضت على الفتاة الأميرة الرحيل مع هؤلاء ، فقالت : لن أرحل إلا معك ياسيدي ..أريد أن أعرف هذا الدين الذي تدعون إليه ، أريد أنّ أعظم هذا الإله الذي تعبدونه وتـقدسونه وتخرون له ساجدين.

كان الشاب القادم نعمة كبرى من الله تعالى لأهل هذه الجزيرة ، وعلم الناس الصلاة والفاتحة والقرآن والصوم والإيمان ، لقد استطاع هذا الشاب نقل ما يحفظه عن الإسلام لهؤلاء ، فأحبوا الدين الجديد ، والإله الجديد حبا عظيما ، وبنينا مسجدا للجزيرة ، وتعلموا الآذان وألفاظا من العربية ، الحقيقة يا أصدقائي سررت من هذا العمل ، وهو اخراج هؤلاء من الظلمات إلى النور ، ودونا كل ما سمعناه من الشاب على الصحف والجلود ؛ وبعد سنتين قال الشاب : الآن انتهى ما عندي وأريد العودة لبلادي في أول سفينة تمر علينا ، وأنا أيضا عزلت نفسي عن الحكم ، وبينت لهم رغبتي بالرحيل لأهلي ، فقد طال عليهم الغياب ، وحثثتهم على تعلم صناعة السفن والقوارب ، وذلك بأن يرسلوا بعض أبنائهم لجزر مجاورة يتعلمون منهم ذلك وعليهم ألا يظلوا منغلقين على أنفسهم ، وعليهم كذلك ببعث بعض أولادهم الأذكياء لبلاد المسلمين ؛ ليتعلموا العلم الشرعي النافع وغيره ، ثم يعلموه للناس والجزر المجاورة ، والحق أنهم بكوا وحزنوا لرحيلي ، وتمنوا ألا تمر سفينة على بلادهم حتى أظل موجودا بينهم ،

فشكرتهم شكرا جزيلا ، ثم واسيتهم قائلا : لعل الله يقذف بي إلى قوم بحاجة لي مثلكم .. أدعوهم للخير والسعادة .

ويسر المولى سبحانه سفينة سائرة لبلاد الشمس والصين ، فحملتنا أنا والشاب المعلم والفتاة الاميرة وعشرة من الغلمان الأذكياء مسافرين في طلب العلم، وفن صناعة السفن ، فأرشدتهم بالمسير إلى بلاد فارس أو بغدان أو الشام أو مصر ففيها زاد طيب .



ملك السنجاب

عندما زرنا صاحبنا حصرما بعد أيام من سماعنا منه حكاية الكاهن ، وتناولنا الطعام وما لذّ من الشراب الطيب ، أصغينا آذاننا لمحدثنا ابن سلام بعد أن قال هانيء : يا سيدي حصرم وصل بنا الحديث عندما ركبتم السفينة مغادرين جزيرة الكاهن جزيرة السمكة الحمراء فماذا جرى لكم بعد ذلك ؟!

قال حصرم : يا أيها السادة الكرام ! فهمت من الصبية الأميرة أنّ بلادها قريبة من جزيرة السمكة ، وفي أول مدينة رست فيها السفينة ودعنا الشاب المعلم والغلمان ، وأخذت الفتاة الأميرة وبحثنا عن سفينة مسافرة لبلاد السنجاب أو جهة تلك البلاد ، ولما تيسر لنا ذلك سافرنا ، ووصلنا لتلك الديار بسلام ، بدون عوائق تذكر في هذا المقام ، وكان هدفي الأول أيها الكرام رد الفتاة "صفا" لأهلها ردا جميلا ، وصلنا ساحل مدينة السنجاب ليلا ، ومن الميناء اكترينا حمارين من أحد الحمارين ، وطلبنا منه أن يوصلنا إلى قرب قصر ملك السنجاب (بوقة السالي) ، ولما وصلنا قلب المدينة كان الظلام قد خيم بشدة على المدينة ، ولما اقتربنا من قصر الملك صرفنا الحمار ، وبحثنا عن خان نمضي به ليلتنا ، وقد وجدنا ما أردنا ـ وكما تعلمون أيها الكرام ـ أن الأميرة لها بضع سنوات غائبة عن البلاد ، وهم يعتقدون غرقها وموتها ، وقد تقرر بيننا أن تذهب الأميرة إلى قصر والدها وحدها، وتطلعهم على جلية الأمر ثم ترسل ورائي لتعرفني على أسرتها ، ولما لاح الفجر بنوره الوضاح اتجهت الأميرة إلى القصر لتلتقي وتجتمع بأحبابها ، وغابت يومين ثلاثة أيام ، فاعتقدت أن الأميرة صفا نسيتني مع فرحتها بلقاء الوالد والوالدة والأحبة ، ففكرت بنسيانها والبحث عن الملك الذي يعشق الجواهر النادرة صاحب القبطان شادور؛ ولكن سمعت من صاحب الخان ذات مساء ، وهو يهمس في أذني أن فتاتي قد ادعت أنها ابنة الملك بوقة السالي ، وهي مسجونة في سجن الحوت ، تعجبت مما سمعت ، وسألته أول سؤال : كيف عرفت بالأمر ؟! فقال: لي صديق يعمل حارسا في السجن ، والفتاة طلبت منه أن يوصل إليك الخبر، وقد وهبته خاتما من أجل هذه

الخدمة ، وعلم أن الفتاة تدعي أنها ابنة الملك بوقة الأميرة صفا ، وأنها الأميرة التي اختفت يوم زواجها منذ سنوات ، وقيل إنها قد غرقت وماتت ، فلما سمعت كلامه صدقته، وقلت : يا هذا اكتم الأمر ودعني أفكر بالأمر ، وأقسمت له بإلهي العظيم أنها الأميرة صفا ابنة بوقة السالي ، ولابد أنّ التباسا قد حصل ، وسوف أبذل جهدي وذكائي في كشف السر .

وسألته عن خلق وطباع الملك والسادة الوزراء والأمراء ، وطلبت منه مساعدتي بالاجتماع مع رفيقه السجان ، وتم لي ذلك أيها السادة الكرام ، وفهمت من السجان أنّ الفتاة قد مشت إلى القصر وتحدثت مع رئيس الحرس "جهار" ، ولم يصدقها وكذبها ، وأمر بحبسها ، وهي مسجونة عندهم ، وتصيح وتقول :أنا ابنة ملككم ! أنا الأميرة صفا ! وقال لي : نحن لا نستطيع تصديقها ورئيس الحرس قد أمر بحبسها ، وقال " إنها مجنونة وكذابة " ، فقلت له : اذكر لها أنّ رسالتها وصلت اليّ ، واطلب منها الصمت حتى أدبر أمرها ، وأوصل أمرها للملك لوالدها ، ورويت له قصتها باختصار ، فصدقني ، وأوصيته عليها خيرا ، وأن يكتم الأمر حتى يحدث الله لها أمرا .

وبعد تفكير عميق وقلق على الأميرة قلت : على الأميرة خوف حتى أنهم لم يتحققوا من صدق أقوالها ، فرسمت فكرة لإخفائها وخطفها من سجن الحوت قبل فوات الأوان، وكانت الخطة تقوم على الهرب من السجن بمساعدة السجان جوهان، ورتبت الأمر مع السجان ، ففي نصف الليل دخل السجان غرفتها خفية عن زملائه ورفعها حتى وصلت إلى النافذة الوحيدة في الغرفة ، وكنت في انتظارها من خارج الغرفة ، فأنزلتها ثم اجتزت بها سور السجن ، وذهبت بها إلى مكان قد هيئته لإخفائها ، وقد تم لنا ذلك بسهولة ويسر وبمساعدة كبيرة من السجان جوهان الذي أظهر لأصحابه أنه متعب ، وتظاهر بمغادرة السجن واختبأ فيه حتى تم تنفيذ العملية بيسر وسهولة ، فعاد جوهان لبيته سالما مطمئنا ، وقد زودته بألف قطعة ذهبية جزاء مساعدته لنا ، وأخذت فتاتي واختفينا عن الأنظار بضعة أيام ، ثم تنكرت بشخصية شحاذ ، وعادت بي الذكريات إلى هاوان والشيخ عبدون ، ثم شاركتني صفا التنكر ، وبدأنا

نتابع أخبار الملك وجهمار لاكتشاف الدافع الحقيقي وراء سجن الأميرة حتى نصل إلى طريقة توصلنا للملك بوقة السالي ، وفي المساء نعود للبيت الوضيع في حي الشحاذين والفقراء ، عرفنا من اختلاطنا بالناس أن أمر الأميرة كبر وعظم بعد هربها من السجن ، وأنّ رئيس الحرس غضب على حرس السجن أشد الغضب لتهاونهم في أمر المسجونة ، وأبعدهم إلى سجون أخرى ومواقع حراسة أخرى ، وعلمنا من صاحبنا السجان جوهان أنهم يبحثون عن الأميرة سرا ، فقلت له : هذا يؤكد أن هذا الرجل قد عرف الأميرة حق المعرفة ! ولو أنها امرأة مجنونة كما يزعم فلماذا كل هذا الاهتمام بهروبها ومعاقبة الحراس ؟!.

أيها الكرام مضت أيام ولم نكشف سر عداوة جهمار لابنة الملك العائدة ، ولماذا لم يساعدها في الوصول إلى أبيها الملك ، فقلت للأميرة : سأحاول الاتصال بوالدك ، وسنترك التخفي لابدّ أن العيون قد خفت عنك بعد مضي أربعة أشهر من هربك من السجن ، وسنسكن في حي أحسن حالا من هذا الحي الفقير ، وهم اليوم يظنون أنك خرجت من المدينة .

لقد تأكد لنا يا صديقاي أن الناس يعتقدون بموت الأميرة وزوجها في مياه البحر الهائلة ، ولما تيقنت الأميرة أنّ زوجها قد مات عرضت عليّ الزواج من نفسها لتكافئني على مساعدتي لها ، فاعتذرت وبينت لها أن هذا الأمر لا يشغل بالي كثيرا ، وحدثتها عن سيف شادور ، وختمت كلامي معها قائلا : عندما تعودين لأحضان والدك قد يكون لنا حديث في الموضوع ، أما الآن فلا ، ولكنها كررت المحاولة والرغبة ، وأصررت على الصبر والتأجيل ، ثم علمنا بعد رحلينا لحي آخر أن والدتها الملكة قد توفيت منذ سنوات ، وأن والدها تزوج من امرأة مشهورة بالجمال والدهاء والخبث ، وأن أخواتها كلهنّ تزوجن من أمراء وأبناء وزراء ، وكذلك اخوتها تزوجوا جميعهم ، وتبين لهم من تلقط أخبار القصر أن الملك الحقيقي والحاكم لبلاد السنجاب زوجته الملكة "شريكار" ابنة وزيره الأكبر سلحار، فلما تجمعت هذه المعلومات أمام صفا قالت : يا مولاي! كأنني بدأت أفهم سبب غضبهم عليّ ، وقالت أيضا : إنّ هذه الأميرة شريكار تكرهها ، وكان بينهما بغض وعداء خفي ، وتقول : ولا أدري كيف تزوجها أبي ؟!

فهي امرأة ماكرة ، ونفسها خبيثة ، وتحب الشر ، وتكره الخير ، وتعشق الدسائس والمكايد ، ولقد حاولت الزواج من أخي الأكبر بعد أن أوقعت بينه وبين زوجته ، فطلقها ؛ ولكني حذرته من القران بها ، وحدثته عن خبثها ومكرها فرفض عرضها ، وها هي تصل إلى قلب أبي .

قال حصرم : لما عرفت هذه المعلومات كلها قلت للأميرة بعد تفكير عميق أميرة صفا لابدّ أنّ هناك علاقة مهمة بين جههار قائد الحرس والملكة شريكار، وهي التي دفعته إلى سجنك وإخفاء أمرك عن أبيك .. فلو وصل الملك خبرك حتى لو كان كذبا فعلى الأقل يطلب رؤياك ليرى سبب انتحال شخص شخصية ابنته .. فالأرجح أن الملك لم تصله أخبارك أو وصلت إليه أخبار مشوهة ، فيلوح لي أن القائد حبسك رغبة لزوج أبيك الجديدة ، فهناك أمور مخفية ، وستظهر لنا مع الأيام والمهم أيتها الأميرة عليك أن تغيري اسمك ومن شكلك عند الخروج فأنت الآن "كاله" وأنا زوجك "جاريد" من سكان بلاد الراب أعمل في تجارة الخيول والبغال والحمير ، فلقد استأجرت مكانا واسعا في سوق الدواب اشتري بسعر قليل كميات كثيرة ونبيع بثمن عال ، فقضيتنا تحتاج للصبر والوقت ، فصبرت الأميرة ، وأنا أحببت أن اكمل معروفي معها ، وكنت أظن أنني سأمكث أياما في بلاد السنجاب ، وأغادرها باحثا عن الملك صاحب شادور البحار لأبيعه سيف الملك برغوش ملك جزيرة الغراب .

يا أصدقائي الكرام مع البيع والشراء للخيول صار لي معارف ، بعض الأمراء والأجناد ، وذلك كان غاية لي وطريقة للوصول لأهل الحكم والسلطان ، وقدر لي في إحدى الصفقات أن أشترى حصانا أصيلا وجميلا من سلالة عربية ماجدة ، وكان ثمنه غال جدا ، وهو حصان ملوكي ، قلت لنفسي "هذا الحصان سيجمعني بملك السنجاب الملك بوقة " ، ودفعت مبلغا لأحد المنادين ليمشي في أنحاء المدينة ؛ لينشر خبره بين جميع الأهالي ، وانتشر خبره في قلب بلاد السنجاب ، حتى أنّ جههار سيد الحرس في قصر الملك أتى لينظر إليه ، وأعجب به غاية الإعجاب من حسنه وقوته ودفع مبلغا كبيرا ؛ ولكني طلبت ثمنا له مائة ألف قطعة من

الذهب الأحمر ثلاث مرات ، فدفع ثلث المبلغ فاعتذرت له ، وأرشدته لفرس غيرها ، فرفض وانصرف وهو يقول : لا أعتقد أنّ أحدا غيري يدفع لك مثل ما دفعت ، فقلت : يا سيدي إن لم أجد من يدفع ثمنه المطلوب سيكون لك هدية مني .

ولم يطل الوقت فقد جاءني يوما رئيس ساسة خيل الملك ، وأخبرني أن الملك سمع من رجال حاشيته بالحصان الغالي وهو يرغب فيه ، ولما شاهده رئيس السياس أكد لي أنّ هذا الحصان أصيل ، ولابد أنه كان عند ملك عظيم ، وبين لي الرجل رغبة الملك بشرائه ، فوهبته أيها السادة للملك بدون مقابل ، فتعجب الناس من كرمي وسخائي وشهامتي! وطار صيتي في بلاد السنجاب كلها ، وأصبحت تاجر الخيل الأول في البلاد ، وأخذ الأمراء والفرسان يوصونني على شراء خيل لهم ، أمام هذه التضحية صرت أتردد على اسطبل الملك ، وازداد احتكاكي بالفرسان والوزراء وأخيرا تشرفت بمقابلة الملك بوقة السالي الذي شكرني على الحصان الهدية ، وأذن لي بزيارته والتشرف برؤيته في كل آن ، وجرني ذلك إلى التشرف بلقاء الملكة التي طلبت مني عددا من الخيول الأصيلة ، ومع اتصالي بهؤلاء السادة الكبار، وبترددي على قصر الملك ، وقد أعجبته حكاياتي وكلامي ، فأصبحت من علية القوم في أقل من ثلاث سنوات ، وبان لي أيها الأصدقاء الكرام أن الملك مخدوع بزوجته شريكار، وأن علاقة أثيمة بينها وبين جهمار رئيس الحرس ، وتبين لي أنّ بينهما قصة عشق وغرام ، فكان هذا الرجل أكبر من حجمه ، فقررت أن أصل لقلب هذه المرأة اللعوب ، فصرت أرسل لها الهدايا الثمينة من الجواهر والعطور بالخفية ، فما يمضي أسبوع إلا وأرسل لها شيئا جميلا خاتما قلادة إكليلا حتى أصبحنا أصدقاء ، وبدأت تجرؤ وتسمح لي بحضور جلساتها الخاصة مع صديقاتها الأميرات والأمراء ، فتأكد لي أنها امرأة مستهترة غارقة في ملذاتها وشهواتها الحيوانية ، وأن زوجها الملك لا علم له بهذه الأحوال وأنها تخدعه ؛ ولكن كيف سيعرف الملك هذا الأمر الصعب؟! ..

اعلموا أيها السادة أنه أصبح بيني وبين هذه المرأة ود ، واعترفت لي بكل وقاحة بهواها لشخصي ، فقلت لها بكل جسارة "وعشيقك جهمار ماذا سيفعل بي إن علم؟! " فقالت

بهدوء : لا تخف منه ، فهو ألعوبة في يدي ؛ فإن شئت أوردته المهالك أو نفيته إلى آخر بلاد السنجاب ، فقلت : وأنا أتصنع الهلع والولهة : لا أحب القتل أيتها الحبيبة! .. نفيه أفضل حتى يخلو لنا الحب والغرام .

وكان ذلك بعد أيام ، وأنا أريد ذلك لتبدأ بينهما العداوة والبغضاء والشر؛ ولعله يكشف الأمر للملك ، وحصل هذا ، فمن منفاه البعيد أرسل خطابا للملك يطلب منه مراقبة زوجته الخائنة ولم يذكر اسمه ؛ ولكنني أنا أوحيت له بذلك ، وقد عرفت بأمر الرسالة من الملكة اللاهية ، قالت لي: أن أحد حسادها أرسل للملك رسالة يذكر له خيانتي الزوجية له ، والملك حدثها بأمر الرسالة ، فأقسمت له بأنها شريفة عفيفة ، ولا يمكن أن تخون مولاها وسيد نعمتها ، فوجدتها فرصة لأبتعد عنها ، فأظهرت لها الخوف والجزع ، وأنني يجب أن أبتعد عن مجالسها فترة من الوقت ، وكان ذلك ، وهي نفسها أخذت جانب الحذر ، وبدأت تبحث عن الواشي أو الواشية، ولم يخطر ببالها أنه جهمار ؛ لأن في ذلك خطر عليه كما قالت ، وهو إنما اقتنع بكشف أمرها للملك ؛ لأنه شعر بأنها استبدلته بعاشق آخر ، فرأى أن يتخلص منها وممن حل مكانه .

قال حصرم : وقبل أن أنسى أيها السادة الكرام فقد تأكدت أنها هي التي أمرت بحبس الفتاة صفا عند مجيئنا المدينة أول نهار ، وقد استدرجتها ليلة في الحديث عنها ، فقالت : لا أدري لماذا هذا الشعب يتذكرها ؟! إنها فتاة حقيرة ! لقد عشقت شابا مغمورا ، ورفضت الزواج من أمير فارس ، وغرقت في البحر هي وزوجها ، فقد غضب عليهما الإله وأكلتهما الأسماك ، والعجيب أنه قبل سنوات أتت فتاة تقول إنها الأميرة صفا ، فذكر لي جهمار ذلك ، فأمرته بحبسها والتخلص منها ، والأعجب أنها هربت من السجن واختفى أمرها .. فالأمر كما توقعت الأميرة صفا حقد وحسد وغيرة .. والملك بالطبع لم يعرف بأمر الفتاة وحياة ابنته ، ذات يوم أرسلت لي الملكة شريكار ، وعلمت منها أن جهمار قائد الحرس المنفي يريد الاجتماع بها في قصرها الخاص لأمر خطير ، واعترفت لي بذلك خشية أن أعرف بالأمر

فيتغير حبي لها ونحوها ، فشكرتها على حسن ظنها بي وعلى شجاعتها نحوي ، وعرفت زمن اللقاء فذكرت ذلك لابن الملك الأكبر الأمير "جوري " ، فهو صديقي ، وجرى بيني وبينه حديث صراحة ، وأطلعته على جلية الأمر بالتفصيل ، والتقى بأخته سرا ، فلما أعلمته بالحقيقة كلها وموعد العاشقين ، فكما قال لي: أخذت والدي الملك متخفين بزي جنود إلى قصر الملكة وسمعنا كل كلام شريكار وجهار، وكان غاضب عليها ، ويهدد بفضحها أمام الملك إن لم يعد لقيادة الحرس ويعود العشق والود بينهما ، ويريد أن يعرف منها العشيق الجديد ، وكشف كثيرا من الأسرار القذرة أمام مسمع والدي ، فقال أبي : " هيئ سيفك " واقتحمنا الغرفة وعلى الفور قتلت جهار والمرأة الخائنة ، وغضب الملك غضبا مرعبا ، وأمر بقتل كل الجواري والخدم وحرسها الخاص ، وجرت عملية تطهير مرعبة في كل القصور الملكية ، وما هدأت الأمور إلا بعد شهر من الزمان.

ولما هدأت نفس الملك ، كشف له الأمير جوري عن حياة ابنته صفا والدور الذي لعبته من أجلها ، فتعجب الملك من شهامتي وكرمي ، وفرح بعودة الأميرة الملك وكل الناس ، وشكروني على الجهد والصبر الذي بذلته من أجل الأميرة ، ووهب لي الملك مالا كثيرا كثيرا ، وعرضوا علي مركزا رفيعا في بلدهم ، واعتذرت لهم وذكرت لهم قصة السيف الثمين سيف الملك برغوش ، وحاولت الفتاة الزواج مني مرة أخرى ، فتأسفت لها وللملك وقلت لهم : إن عدت سالما من بلاد الملك الشمام سآخذ قرارا مهما في شأن الزواج ، وودعتها وودعت أهل السنجاب ، وقد أودعت أكثر أموالي عند الأمير "جوري "، ورحلت باحثا عن بلاد الملك الشمام ، فقطعت البراري والقفار والأنهار حتى دخلت مدينة يقال لها "ياقوتة" ؛ ولكن قبل أن أدخل قلب المدينة التقيت بعجوز شمطاء تجلس وحيدة عند شجرة عملاقة في السماء فقلت لنفسي " لابد أنها تستظل من شدة الحر في هذا النهار " ، فألقيت عليها التحية بلساني ومشيرا بيدي ، فما سمعت منها جوابا ، فسألتها عن ماء ، فكذلك لم أسمع جوابا ، فصحت فيها قائلا : يا عجوز السوء .. أخرساء أنت أم لا تحبين الكلام مع الأغراب ؟ وإلى لقاء آخر يا

سادتنا! وفي المرة القادمة تسمعون ما جرى لي في بلاد الياقوتة من أعاجيب الدهر ومكر الشياطين في بني الإنسان منذ غابر الأزمان والدهور، فحكايات الناس لا تنتهي ما دامت الحياة الدنيا قائمة، وغرائب الأيام لا نهاية لها ما دامت الحياة مستمرة .



الشجرة العجيبة

قال سلامة أخذت صديقي هانئا ، وانطلقنا على بغلته إلى قصر صاحب هذه القصص السيد حصرم بن سلام ؛ لنسمع منه حكايته مع العجوز الشمطاء في بلاد الياقوتة ، وكعادته رحب بنا ترحيبا كريما ، ولما انتهينا من أكل طيبات الطعام أحضر الغلمان أزكى الشراب المباح والفواكه اللذيذة والحلوى الجميلة الشهية ، وحينئذ حان وقت الاستماع فاعتدل حصرم في جلسته وقال : أيها السادة الكرام! تركتكم عندما ألقيت السلام والتحية على العجوز الشمطاء الجالسة تحت شجرة غليظة الجذوع وعملاقة تمتد في السماء ، ولما سألتها عن ماء ، فلم ترد عليّ صحت فيها ووصفتها بالسوء ، فقالت : يا مسكين أنا لست خرساء ؛ ولكني خائفة عليك من سوء المصير..وكثرة الكلام قد تؤدي بك إلى الهلاك .. فقلت عدم الرد عليك يدفعك للرحيل عاجلا ، وبما أنك ثرثار وتحب الكلام تعال فاجلس بـقربي لتسمع حكايتي .

فاقتربت منها وجلست بقربها كأني لم أسمع سوء مقالتها ، فقالت : أيها الشاب الغريب إذا كنت شجاعا ومقداما كن معي ، وساعدني على لقاء ابنتي "مي" فاقتل زوجها " راس" ولك كل الأموال الموجودة في بطن الشجرة .

فقلت : يا عجوز .. لم أفهم شيئا فسري الكلام ؟! .

قالت: أعرف أنك غبي فلم تفهم شيئا .. فاسمع من البداية لعل النهاية تكون على يديك .. يا ولدي في أعلى الشجرة تجويف إلى أسفلها ، وفي الأعلى حبل مدلى للأسفل .

ثم توقفت قليلا وأخذت نفسا عميقا ثم قالت : النصح لازم ، فيا ولدي إن أتى زوج ابنتي ورأك هنا عدمك الحياة .. فهل تستطيع الدفاع عن نفسك ؟!

فكرت قليلا وقلت لنفسي : يبدو أنّ وراء هذه العجوز قصة كبيرة ، فقلت لها هيا نغير المكان إذا كان جلوسنا تحت ظل هذه الشجرة الفارهة فيه خطر علينا أيتها العجوز المليحة ! .. لنسمع حكايتك مفصلة .

فمشت العجوز وتبعتها حتى ابتعدنا عن الشجرة كثيرا فجلسنا فقالت : هل تستطيع الوقوف

معي وتساعدني ؟ .

فابتسمت وقلت : لمَ لا؟! ..إذا استطعت يجب أن أساعدك ، وسوف أفعل من غير تردد أيتها العجوز المليحة .. ما قصة الشجرة وابنتك وزوجها؟!

فعادت تقول بحزن وألم: ابنتي مي فتاة جميلة ، ومحبوبة من كل الناس ؛ ولكن المسكينة حظها سيء وتعيس ، لقد رآها لص كبير ومجرم عتيد فخطفها منذ سنوات لا أعلم عددها ، وهذا الوحش اسمه يرعب الخلق ، ولا أحد يقدر عليه إلا رب العباد يلقب بالصمصام ، وإن تحدث أحد عنه في قوم ولوا مدبرين ؛ ولأنك غريب فتراك تسمع كلامي .. كلام هذه العجوز الحمقاء ، ولا تعرف أنت الصمصام جيدا ؛ ولكن لعل إنقاذ ابنتي مي على يديك يا غريب .. فمي محبوسة ومسجونة في جوف الشجرة التي كنا نجلس تحتها .. يا ولدي ما اسمك ماذا سماك أهلك لأناديك؟

فقلت من غير شعور وتفكير: حصرم بن سلام ! فهذه أول مرة منذ خرجت من قريتي جمانوسا أصرح باسمي الحقيقي ، أي لم أتخذ اسما آخر ، ذكرتني بأمي وحزنها عفا الله عنها .

فقالت : يا ولدي يا حصرم ! هذا الوحش فجعني بابنتي مي ، وليس لي غيرها في الدنيا ، لا ولد ولا زوج ، ولا أحد يقدر على مساعدتي ورفع الظلم عني وعن قرة عيني مي .

فكنت أسمع كلامها المكرر ، وأهز رأسي ، وأدرك أن مصيبتها كبيرة ، ثم قالت : في يوم من الأيام الخالية زارتني مي ، والدموع في عينيها، والنحيب في جوفها ، وذكرت لي حالها ، ووصفت لي هذه الشجرة يا سيد حصرم ، فهذا اللص الكبير الصمصام اللعين يسرق أموال الناس هو وعصابته الأربعون بدون رهبة ودون وجل ودون عقاب ، وكل الأموال التي يسرقها ويغتصبها من مدينتنا ومن المدن المجاورة يخفيها في بطن الشجرة ، وله ولعصابته في الجبل قصر ، وكل صباح أول النهار يأتي إلى الشجرة ويصعد عليها وينزل في جوفها إلى ماله وزوجته مي ، ويبقى حتى الظهر ثم ينصرف لرجاله وجرائمه، وقد يغيب عنها الأيام والليالي هكذا قالت لي مي ، ويرسل لها الطعام مع بعض رجاله ..لا أحد يريد أن يسمع هذه القصة

مني يا ابني يا حصرم ، لا أحد يصدقني ، فساعدني على إخراج ابنتي من سجن المجرم ، وخذ كل الأموال التي يجمعها اللعين.. فأنا يا سيدي كلما يزداد بي الشوق لابنتي أزور الشجرة لعلي أسمع صوت مي ، لعلي أرى إنسانا يصدقني ويساعدني .. فالله أرسلك لمساعدتي وإنقاذ مي من ذلك الوحش الآدمي .. فكن معي وساعدني .

بعد هذه الاستغاثة بي وتفكير عميق قلت : أيتها العجوز المعذبة ! أنا ذاهب إلى بلاد الشمام في مهمة ، وعندما أعود سالما من مهمتي سأعود إلى الياقوتة من أجلك ، فادع لي بالعودة سالما .. فعرفيني بيتك . فدلتني على بيتها ، فسألت بعض جيرانها عن عقلها وإدراكها ، فلم يتهمها أحد بالجنون والخبل أو الخرف، وجازفت وسألت عن الصمصام ، فلاحظت أنّ الرعب يرتسم على الوجوه عند ذكره ، فمكثت أياما في بلاد الياقوتة ، وأنا حذر من الوقوع بين يدي عصابة الأربعين ، ثم تابعت مسيري في قطع المدن والقرى والوديان والجبال ، تارة مع القوافل وتارة وحدي إلى أن وصلت لبلاد الشمام برعاية الملك الواحد القهار رب العزة الرحمن الرحيم ثم تفرجت على البلاد والعباد عددا من الأيام ، ثم يممت نحو قصر الملك الشمام صاحب البلاد ،وطلبت مقابلته لأني أملك جوهرة يرغب بها ملك تلك الديار، فالملك مشهور بين ملوك ذلك الزمان بعشق الجواهر والتحف النادرة ، فما كاد يعرف برغبتي والغاية منها ، حتى فرح ورحب، وأمر بإدخالي عليه على الفور ومن غير تأخير ، ولما سلمت عليه ونظرت في جلسائه كان من أعاجيب القدر أن رأيت غريمي شادور في ديوانه العامر بالرجال .. شادور القبطان القديم الذي فارقته منذ أكثر من عشر سنوات .. فارتبكت قليلا ثم قلت لنفسي " بيننا حساب .. فهو يبدو لي أنه لم يعرفني لاعتقاده أني مت قديما، وقد بلعتني القرش والحيتان " فرسمت على جبيني ابتسامة خفيفة ، وسمعت الملك يقول : من الضيف وما يحمل لنا ؟!

فقلت : خادمك يا مولاي حصرم بن سلام من بلاد الغرب ، وقد سمعت أنّ مولاي يحب النوادر من المرجان والياقوت والجمان ، فوقع بين يدي سيف جميل تحفة للناظرين ، فعلمت من الركبان رغبة مولانا صاحب الشأن العظيم أن له فيه رغبة ، فجئت به إليك يا أيها الملك

الشمام! لعلي أفوز برضى الملك ، وأحقق له رغبته في امتلاك هذا السيف الجميل ، وأنال بعض الجزاء من صاحب الملك السعيد الملك الشمام !.

فابتسم الملك لحسن كلامي وطرب وقال سعيدا : هات ما عندك ؟.

فأخرجت السيف الملفوف بالحرير ، ووضعته بين يدي الملك وأنا أقول :هذا سيف الملك برغوش ملك جزيرة الغراب . وعدت القهقرى حيث كنت .

أخذ الملك المبهور يتفحص السيف وينظر إلى جماله ، وينظر إلى البحار شادور تارة وإليّ تارة أخرى ، وقال : كأنه سيف برغوش الملك القديم ..أيها الرجل من أين أحضرته ؟!

كان شادور يدقق النظر فيّ وقد تلون وجهه ، فقلت مجيبا الملك: يا مولاي .. حصلت عليه من جزيرة الطيور أو الغراب كما يسميها أهلها .

فعاد الملك يقلب السيف والغمد والجواهر التي عليه من جديد ، ثم قال بعد تدقيق نظر : كأنه هو .. كأنه هو !!

فقلت : مولاي ما الأمر ؟! ..إنه سيف الملك برغوش .

فقال الملك : أيها الرجل ! هذا ليس سيف برغوش الحقيقي ، فهو سيف يشبه .

صعقت لكلام الملك وذكرت له قصتي في جزيرة الطيور ، فقال معلقا : يبدو أنهم خدعوك .. خدعك اللصان يا حصرم بن سلام ! وعرفوا أنك لا تعرف سيف برغوش ، وأنت متلهف لسيف، ولا تعرف الصفة الحقيقية للسيف فخدعوك بهذا

فقلت : ربما .. رغم أنني تابعت الحفر معهم للنهاية ؛ ولكن يا ملك هذه البلاد كيف عرفت أنه المقلد ؟! ولم لا يكون هو الحقيقي ؟!

فنهض الملك عن سريره وقال : تريثوا أيها الناس حتى انظر سيف برغوش ، وحتى يتأكد هذا المغامر أنه خدع .. ولسوف أشتري منك هذا السيف ، فهو يحمل بعض الجواهر الجميلة .

ودخل الملك القصر ، وران السكوت التام على القاعة ، فاقتربت من شادور وهمست في أذنه : أنا أحمد الذي ألقيته في البحر.

ففزع الرجل وصرخ : من أحمد ؟!

وأخذ رجال الملك ينظرون إلينا بدهشة وحيرة ، وعاد الملك يحمل سيف الملك برغوش المعتقد أنه الأصلي ، ورفع السيفين أمام الناظرين وهو يهتف قائلا : انظروا أيها الناس تزييف متقن إلى حد كبير ، ولولا أني متأكد أن هذا الشاب لم ير سيف برغوش الحقيقي لقلت إنه محتال كبير ، فالذي صنع هذا السيف لابدّ أنه رأى سيف برغوش .

فحينئذ قلت : شكرا سيدي الملك ! واعتبر هذا السيف هدية مني إليك ، رغم أنه كاد يكلفني حياتي ، فقد تعرضت لغدر القبطان شادور من أجله ، وأفصحت للملك عن الذي أرسلني لجزيرة الطيور ومكثت سنة هناك ، ولما عاد القبطان فرح بحصولي على السيف ، وحاول أخذه مني هو وبحارته ، ولما شعرت بطمعه أخفيت السيف وشددته على فخذي حذرا من غدرهم ولما نمت القوا بي في البحر ، وظللت أعوم حتى وصلت لجزيرة السمكة الحمراء ، ولي أكثر من عشر سنوات أتنقل من بلد لآخر حتى وصلت إليك أيها الملك ، وهكذا كانت النتيجة أنني احمل سيفا مزورا يا قبطان شادور!

عندئذ قال شادور: أعترف يا ملك الدنيا أنني طمعت بالثروة وحدي ، وأغراني الشيطان اللعين بالتخلص من هذا الشاب المغامر ، ولما رميناه في البحر اعتقدنا أننا ملكنا السيف ، ولقد كان ذكيا فطنا عندما احتاط لنفسه ، ولقد قلبنا السفينة رأسا على عقب فلم نجد السيف ، وغرق الرجل وأكلته دواب البحر وغرق السيف معه للأبد ، ولقد رأيت السيف جيدا ومسكته وقلبته ، فصدف أن تعرفنا على صانع جواهر ماهر لدرجة كبيرة ، فوصفت له سيف الملك برغوش ، فقلده تقليدا متقنا حتى اقتنعت أنا أنه سيف برغوش ، فجئت به يا ملك الدنيا .

فضحك الملك وقال: آه !! ما أطمع بني أدم! على كل لقد أرسلت وراء أمهر صانع جواهر في بلادنا لينظر في أمر السيفين ؛ ولكنك اعترفت يا شادور قبل أن اكتشف كذبك ، فحسابك قادم يا قبطان شادور ، وأما أنت أيها الشاب المغامر سأعطيك عشرة آلاف درهم التي خسرتها

للصوص القبور ، وعشرة أخرى مقابل الجواهر المرصوصة على السيف والغمد ، وعشرة ثالثة هبة مني إليك على أن تحدثنا شيئا من مغامراتك الأخرى ، كل هذا سوى المائة ألف هبة السيف .

فرويت لهم حكايتي مع الشيخ عبدون ، ومكث في ضيافة الملك بضعة أيام، ثم ودعته ، وسكنت المدينة بضعة شهور ، ثم رحلت بما أحمل من الهدايا والمال، وقد قررت أن أجعل مغامرتي القادمة في الياقوتة آخر مغامرة ، ومن ثم العودة إلى بغداد والحياة فيها حتى النهاية ؛ ولكن بعد المرور على جمانوسا وتفقد أختاي ، ولما دخلت الياقوتة وضعت أموالي في مكان أمين ، ثم استعددت للمعركة مع عصابة الأربعين يا أصدقائي الكرام .



لم أجتمع بالعجوز أم مي ، وبدأت أتردد على مكان الشجرة ، وبينما أنا يوما أتمشى بالقرب منها أمسك بي رجلان ، وسألاني ماذا أفعل هنا ؟ ! فقلت لهم عابر سبيل فضرباني وحذراني من المجيء إلى هذه المنطقة ، فقلت في نـفسي : لابدّ أنهما من عصابة الصمصام ، فانصرفت راكضا وأنا أتظاهر بالضعف والخور ، وزاد يقيني أن العجوز صادقة في قصتها ، فصرت أحمل سيفا قصيرا أخفيه تحت الثياب ومدية قوية ، وتذكرت كلمات العجوز مرة أخرى ، وبعد زمن يزيد عن شهر قررت اقتحام الشجرة ، فرصدت المكان عن بعد ، ولما خرج الصمصام من الغابة المحيطة بالشجرة كما حدثتني العجوز ، فانتظرت إلى الليل ، وتحركت إلى الشجرة ، وصعدت متسلقا جذعها الضخم حتى وصلت إلى ارتفاع عال ، فوجدت فيه فتحة كالنافذة لدخول شخص ، ووجدت الحبل متدليا للأسفل كما قالت العجوز ، فنزلت رويدا رويدا إلى أن أصبحت على الأرض ، وكان الظلام شديدا وحالكا لا يرى المرء اصبعه من شدته ، فوجدت نـفسي في نفق ، ولما أخذت على الظلام لمحت بصيص نور بعيدا عن جوف الشجرة

فزحفت في النفق مبتعدا عن جوف الشجرة ، ولقد كنت أسمع دقات قلبي ، وبعد سير مرهق وصلت إلى مكان الضوء المنبعث من تحت باب حجرة تحت الأرض ، وهمست قائلا : يا مي ! يا مي ! .. وكانت تقفت مي خلف الباب وقالت : من .. الصمصام ؟! فقلت : لأ ، أنا صديق ، لا تخافي ، أرسلتني أمك لإنقاذك .. أمك العجوز .

فتحت الباب فازداد النور ، ورأيت امرأة شابة تقف في عرضه ، وتحمل المصباح في يدها ، فعرفت الفتاة على نفسي ولقائي مع أمها ، وأنني قادم لمساعدتها للخروج من هذا الحبس الرهيب ، فبكت الفتاة بين يدي بكاءً مريرا حتى أبكتني لبكائها ، وذكرت لي قصة عذابها ، عذابها من الصمصام ، ولها أكثر من عشر سنوات تعيش في هذا القبر العجيب ، وكان لغرفتها نافذة صغيرة تطل على واد عميق يدخل منها الهواء وبعض الفضاء ، فتعجبت من حالها وصبرها ، ولما سألتها لماذا لم تحاول الهرب ؟! فقالت : أين المفر ؟! ثم قالت : لقد سمح لي هذا المجرم مرة واحدة برؤية أمي ، وحذرني من الهرب ، وهددني بسفك دم أمي ، فقضيت أياما عندها ، فذكرت لها ما أعانيه من العذاب ومكان الشجرة ، وذكرت لي سوء خلق زوجها الصمصام وصفة مجيئه إليها ، فقلت لها وكلي غضب وهيجان : لابدّ من قتل المجرم غدا إن شاء الله ، وكنت قد رأيت كنوز ذلك المجرم من صناديق المال والذهب والفضة والعقود والسيوف الذهبية المزينة بالجواهر ، ثم رتبت معها الكمين لقتله ؛ ولكنه لم يحضر في النهار التالي فقد خرج في مهمة على ما وضحت مي ، فقد بعث أحد رجاله بالطعام والفواكه ، ولما هبط الرجل القادم طعنته على الفور ، وأخذت ما معه من طعام ، وهنا احترت كيف أتخلص من جثته عندما أخبرتني مي أنّ هذه الجثة ليست لزوجها ؟! فربطته بحبل وسحبته لأعلى الشجرة وألقيت جثته في الغابة لأثير القلق والتوتر في رجال العصابة ، وفي الليل سمعت رجالا بالقرب من الشجرة وقد وجدوا جثة صاحبهم ، وهم يتسألون عمن تجرأ على قتله ؟! .

وفي صباح النهار التالي هبط الصمصام جوف الشجرة ، وهو يزمجر ويصيح : مي .. مي ولما استقر على الأرض ، كان خنجري يغمد في صدره ، فخار كما يخور الحيوان الذبيح ،

وقلت لمي سأرميه من نافذة غرفتك في الواد العميق لتأكله السباع والكلاب ، وعملت من صناديق الأموال درجا وألقيته لوحوش البراري ، وهكذا خلصت الياقوتة من الصمصام وانتهى أمره ، وقلت لمي علينا أن نبقى هنا بضعة أيام ، فكلما جاء أحدهم صرعته وقذفته من الشباك على الوادي ، وفي الليل سمعنا حركة في جوف الشجرة ، فذهبت مي وقالت للقادم : الزعيم متعب ويأمرك أن تحضر غدا واجلب معك طعام لمدة أسبوع فالصمصام يريد الاستراحة ، فصدق الرجل على الفور وانصرف ، ثم عاد صباحا وهو يحمل سلال الطعام ، فقالت له مي : انزل يريد الزعيم الحديث معك ، هل جاء معك أحد ؟

رد اللص : معي روجا ، ونزل واستلمت مي منه السلال وتقدمته في النفق ، ثم فاجأته بطعنة مدية أوردته المهالك ، ولحقت جثته بجثة صاحبه ، فسمعت على أثر ذلك زئير الوحوش في الوادي كأنها تتصارع على من يبدأ الأكل من جثته ، وبعد قليل سمعنا صوتا ينادي في أعلى الشجرة فذهبت وقالت: روجا اهبط الزعيم مريض وغاضب ، فنزل من غير تفكير ولا تردد وما كادت قدماه تلامس الأرض حتى خر صريعا ، وألقى للحيوانات الجائعة ، فقلت : أربعة يا مي كم بقي منهم ؟

ردت قائلة : سبعة وثلاثون .

وفي اليوم التالي هرع للمكان جملة من الرجال ، وصعدوا معا للفتحة في أعلى الشجرة ، ولما سمعوا صوت مي قالوا : ما الأمر يا زوجة الزعيم ؟!

فقالت : الزعيم مريض وأرسل روجا وصاحبه لجلب دواء له من عند أحد الكهنة

فقال أحدهم: لم يحضر روجا أو صاحبه إلينا.

فقالت : قد يكونا ذهبا إلى الكاهن من دون المرور عليكم ..كم أنتم ؟

قال أحدهم : نحن خمسة ، هل يريد الزعيم منا شيئا ؟

ردت : انتظروا حتى أساله .. فها هو يصيح عليّ ، فقلت لها فلينزلوا للزعيم واحدا واحدا فهو يريد الحديث معهم .

فاقتربت من جوف الشجرة وقالت: انزلوا واحدا تلو الواحد ، الزعيم يريد الحديث معكم ، فلما نزل الأول ودخل النفق طعنته في صدره ، وقد وضعت يدي على فمه حتى لا يرتفع صوته ، وكما هو معروف أن الرجل المنتقل من الضوء للظلام الدامس يحتاج بضع دقائق ليرى جيدا في الظلام ، وقامت مي بسحب الميت إلى حجرتها ، وكان الثاني قد دخل النفق فلقي مصير صاحبه ، وفلتت منه صيحة؛ ولكنها خفيفة ، فقلت رافعا صوتي : لعلك تعثرت موهما النازل أني الرجل الأول ، وكان الثالث قد نزل إلى الأرض ، وقال : لمَ الصراخ ؟! ولكنه ما كاد يصل للنفق حتى لحقت روحه بصاحبيه ، ثم قتلت الرابع والخامس ، ثم قمت بقذفهم لواد الوحوش ، وما انتهيت منهم حتى أصابني وهن شديد ، لقد كانت ملحمة ، فقامت مي بغسل وجهي وسقي الماء ، وقدمت لي طعاما مما أحضره رجال العصابة ، وزاد صوت الضواري في الوادي لتصارعها على جثث المجرمين ، وامتلأ المكان من نزف دماء العصابة ، واستمر رجال العصابة يتوافدون على مخزن الزعيم سبعة أيام بلياليها حتى تمكنت من الفتك بالأربعين مجرما وزعيمهم ، وخرجنا من السجن ونحن كالغربان وإلى بيت العجوز التي فرحت فرحا كاد يهلكها ، فأخذت بتقبيل مي تارة وتقبيلي تارة ثانية ، فلقد كانت لا تصدق أنها سترى ميا مرة أخرى في حياتها، وطلبت منهما كتم أمر هلاك العصابة حتى أرجع إليهما ، وانطلقت إلى قصر حاكم الياقوتة ، ولما قابلته رويت له قصة مصرع الصمصام وعصابته ، وبعد جهد جهيد صدق كلامي ، فطلبت منه قوة من العسكر لمداهمة قصر الصمصام في الجبل وتطهيره من المجرمين ، وبعد أن رأى سرا بقايا جثث رجال العصابة في الوادي ارتفع الخوف عنه بعض الشيء وأعطاني سبعة رجال ، وهم غير مصدقين بمصرع الصمصام ، ويظنون أنها حيلة لتوريطهم مع الصمصام ، واقتحمت القصر وقتلنا ما فيه من كلاب الحراسة ، فلم نجد فيه إلا نساء وأطفال رجال العصابة ، وانتشر الخبر في الياقوتة ، وخرج الناس كلهم عن بكرة أبيهم يهدمون قصر الصمصام ، ويرون الرجل الذي صرعهم ، وعمت الأفراح في الياقوتة ، والمدن والقرى المجاورة عندما وصلتها الأخبار كانوا يهرعون إلى قصر حاكم الياقوتة

ليتأكدوا من الخبر ، ويسمعون القصة من فمي ، ويذهبون للوادي حيث بقايا الجثث والعظام ليزدادوا اطمئنانا ، وأصبحت في نظر الناس بطلا خرافيا ، ويزورون ميا لسماع القصة منها مرة أخرى ، وبدأ الرعب يخرج من النفوس رويدا رويدا ، وقد وهبني الحاكم كل ما وجدته في قصره من مال وخيل وما في جوف الشجرة ، فوضعت ما وجدناه في القصر في ميدان واسع في المدينة ، وذهبنا للغابة وقام الحطابون بحرق الشجرة المرعبة ، ولما سقطت على الأرض ظهر النفق السري ، وحفر الحفارون ثم دخلنا بالمشاعل والمصابيح حيث الكنوز ، ونقلت الكنوز إلى الميدان الواسع ، وأمام الملك طلبت من المنادين أن يدعو الناس الذين فقدوا شيئا أن يأخذوه من كنوز الصمصام ، وبعد شهر قلت لحاكم الياقوتة خذ ما شئت من كنز الصمصام وكان الحاكم لما تأكد له مصرع العصابة قد منحي كل كنوزه ؛ ولكني أحببت أن أعيد للناس ما سرق منهم ؛ ولكن تبين أن أكثره مسروق من بلاد أخرى ، فتقدم الملك للكنز وتناول بعض المجوهرات والسيوف المرصعة بالجواهر ثم قال : هذه الأشياء للذكرى ، فأنت وحدك تستحق هذا المال ، فلنا أكثر من ثلاثين سنة نعيش تحت رعب هؤلاء الطغاة ، والمفروض أن نعطيك من مالنا الخاص جزاء تخليصك لنا من شرهم وظلمهم .

وما أنهى الحاكم كلامه حتى تقدم تجار المدينة الكبار ـ وهم يحملون أكياس المال والثياب يستأذنون الملك في هداياتها لي ـ فسر الملك سرورا عظيما، وأذن لهم في ذلك ، فقبلت هديتهم ووهبت نصفها ونصف أموال الصمصام لأهل المدينة، وطلبت من الحاكم تزويجي ميا ، وكم فرحت الفتاة بي وكذلك أمها ! واحتفل أهل المدينة بزواجي من مي ، وقد مهرها السلطان المهر عني ، ومكثت عندهم سنة واحدة ،

ثم يممت على الرحيل إلى بغداد ، كما عاهدت نفسي وأنا في بلاد الملك الشمام . جهزت نفسي وزوجتي ميا وأمها ، ولحقت بقافلة متجهة لبلاد السنجاب حيث أموالي عند الأمير جوري ، فاعلموا أيها الأصدقاء أنّ هذا الأحداث التي رويتها لكم استغرقت من السنين ما يقرب من ثلاثين عاما ، فجهزت مائة بغل بغلمانها، وتحركت مع القافلة الكبيرة المتجه لبلاد السنجاب

وما حولها من المدن الكبيرة ، وبعد مسير طويل وجدت الأميرة صفا في انتظاري ـ وكنت قد حدثت ميا عنها ـ فتزوجتها عن رغبة ورضا منها ، ومكثت في ضيافة الملك بوقة السالي ، وبعد شهور قضيتها عندهم حملت الأحمال وهدايا الملك وثياب الأميرة ، وزودني الملك بسرية من الفرسان إلى بغداد ، وبرفقة القوافل ومن بلد لبلد وصلنا لبغداد البلد العظيمة عاصمة الملوك من بني العباس رحمهم الله ، وبحثت عن بيت كبير يليق بمقامي وجهادي في هذه الدنيا ، فوجدت ضيعة الوزير بهاء الدين أحمد قد عرضها الورثة للبيع بثمن عال ، فاشتريتها منهم حسب شهوتهم ، وها نحن نسكن فيها أيها السادة الكرام ، ثم تزود جنود الملك بوقة بما في بغداد من الخيرات والهدايا ورحلوا لديارهم ، وبعد الاستراحة والاستقرار ومعرفة بغداد وأهلها سررت بها غاية السرور ، وتركت أهلي بضعة شهور وسافرت إلى سلهوب ، فلقد تركت فيها بعض الأموال عند صاحبي رباب ، وكم كان اللقاء بعد طول غياب جميلا ورائعا ! وزرت الصاحب حسنا ، وعلمت منه أنه قتل مغنيته القاتلة ، ورويت لهم قصتي واستقراري في بغدان مدينة السلام ، وأنني تبت للرحمن ، وهجرت الخمر والميسر والخلاعة بكل أشكالها وألوانها ، وأنني استعد للحج بزوجاتي الاثنتين ، ثم ودعتهما ، ورحلت لجمانوسا قريتي الأولى باحثا عن أختاي بعد كل هذا الزمان ؛ ولكن فقد وجدتهما مفارقتين للدنيا فبكيت على قبريهما، وتصدقت على فقراء القرية من أجل روحيهما، وأكرمت ذريتهما غاية الإكرام ، وحفرت بئرا وسبلتها لأهل القرية ، وأخبرت الناس أنني نزيل بغداد فمن زارني سيجد عندي بمشيئة الرحمن غاية الوفادة والإكرام ، وعدت لبغداد ثانية فوجدت زوجتاي في قلق كبير عليّ ، فحدثتهما بما فعلت، وهدأت النفوس ، والتم الشمل من جديد ، ثم رحلنا لمكة من أجل فريضة الله الحج الأكبر، وزرنا مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم عدنا لقصرنا في سلام وأمان إلى أن كان يوم ذا شجون وعذاب ، لقد كنت في ضيافة أحد الأصحاب في وسط بغداد العظيمة نتسامر بقصص الحياة والدنيا عندما دهمنا رجال الوالي واتهمونا بالتآمر على السلطان ، ومكثت في السجن بضعة شهور وأيام إلى أن جاءت البراءة

من رب البرية فحنن قلب السلطان علينا ، وأنا رجل لا مطمع لي في السياسة والحكم ، واسكن في ضواحي بغداد دار السلام ، فبعد العفو خرجت مع نسائي صوب مصر وبلاد النيل ، ووكلت بقصري الغلمان تحت اشراف أحد السادة الكبار ، وعشت بتلك البلاد والديار سنوات ، وحالها في تلك الأوقات لا يسر البال ، ثورة على الوالي فلان أو مصرع الوالي فلان ، والظلم فيها منتشر مع عدم استقرار الحكم ، وقد جرت لي قصة فيها لا بأس من اضافتها يا أستاذ سلامة ، فقد جرت لي فيها قصة طريفة .

ذات ليلة عدت للبيت متأخرا قليلا ، فوجدت البيت لا شيء فيه قد سرقه اللصوص ، فأخبرت رجال الشرطة بذلك ، فوعدني الوالي خيرا وبمتابعة الأمر، فاشتريت فراشا ومتاعا جديدا ، ومرة أخرى تأخرت في السهر عند أحد الأصدقاء ، ولما عدت مع زوجتيّ للبيت ، وجدت البيت نظيفا مسروقا ، فأخبرت شرطة الوالي مرة أخرى فوعدوني خيرا وبمتابعة الأمر فاشتريت أثاثا جديدا ، وبعد زمن حضرت زواجا لأحد الأصدقاء ، ولما عدنا لبيتنا وجدنا البيت مسروقا مرة ثالثة ، فأخبرت الوالي ورجاله فوعدوني خيرا ، كلما أتأخر في السهر لسبب ومعي أهلي أجد البيت خاويا ، فقلت لنفسي لابد أن يكون هذا أمرا مرتبا ومحكما ، فرتب لي بعض الأصدقاء لقاء مع السلطان ، وأثناء صلاته في مسجده الكبير قصصت عليه أمري وتهاون شرطته في البحث عن السارق ، فاستدعى الوالي وكلفه بالقبض على السارق بأسرع وقت .

طال الانتظار ولم يقبض على المعتدي ، وأنا خلال هذه الفترة لم أتأخر في السهر ليلة واحدة ، وذات ليلة كنت وزوجتيّ عند إحدى الأسر الصديقة ، وتأخرنا يا قوم بالعودة ، ولما دخلنا منزلنا وجدناه نظيفا مما فيه من المتاع ، فعندئذ صممت أن أمسك اللص بنفسي ، فاشتريت أثاثا جديدا ، ولما دعيت لسهرة اتفقت مع زوجتيّ أن أترك السهرة فجأة بحجة ما وقلت لهما: لا تخافا سوف أعود إليكن، ونـفذت هذه الخطة ، فأثناء السهرة تحججت برغبتي بقضاء حاجتي ، ورجعت للبيت هرولة وسعيا واختبأت فيه ، وكم كانت المفاجأة قاسية عندما

وجدت أنّ الذي يسرقني صاحبي الذي يدعوني لهذه السهرات عنده وعند الأصدقاء ! والله لقد كنت ألحظ تغيبه أثناء السهرة أو الحفلة ، ولم يدخل في بالي خيانته ، فشكوته لشرطة الوالي فحبسوه أياما ، وتركوه قبل أن يعيد لي حقي ، فرفعت أمره للوالي ؛ فإذا هو صاحبه فلم أحصل على شيء ، فلما رأيت الظلم متفشيا ، ولا أحد يهتم بمصالح الناس ، والأمور لا تسير على ما يرام ، والعدل مفقود ، عدت لبغداد عدت للهدوء والراحة ؛ ولكن للأسف ذلك لم يطل أيها السادة ، والشر ما زال كامنا في نفوس البشر ، والشيطان لا يموت ، فكنت أركب قارورة مائية (مركب بحري صغير) في ليلة مقمرة مع صاحب بغدادي ، والملاح يغني لنا وهو يجدف في مجاديفه ، والسهر في الليل والصيف في بغداد جميل ومثير ، فكيف مع ضوء البدر ؟! ولما اقتربنا من أحد الجسور على الدجلة سمعنا صرخة امرأة تطلب النجدة ، فنظرنا حيث الصوت ؛ فإذا امرأة تقف على حافة الدجلة تصيح وخلفها رجلان فألقت نفسها في الماء وكنا قريبين منها فجدفنا نحوها وانتشلناها من الماء ، وقام صاحبنا الملاح بمعالجتها ، وأخذت أنا وصاحبي بالتجديف مبتعدين بالمرأة عن الشابين اللذين يصرخان ويأمراننا بالتوقف ، وابتعدنا عنهما كثيرا ، وفاقت صاحبتنا البغدادية فنظرت إلينا ثم قالت : هل ابتعدنا عن هؤلاء الأشرار ؟؟

فقال صاحبي العراقي : لا تخافي يا أمة الله ، فهل تسمعينا حكايتك ؟ لعلنا نستطيع مساعدتك ونرفع أمرهما للوالي .

فقالت : كيف تساعدانني منهما ؟! أحدهما أخي والأخر ابن عم لي يريدني حليلة ، وأنا لا أريد ، فهو رجل سوء صاحب شراب و فجور ، وأنا أحيا عند أخي وزوجته التي ترغب بالتخلص مني ليبقى بيت الوالدين الميتين لها ولزوجها ، وأخي يريد تزويجي لهذا الرجل الفاجر، وهذه الليلة أحضر أخي وابن عمي معهما شاهدان لعقد نكاحي ، فرفضت ، فقاما بضربي فهربت فتبعاني ، ولما رأيت النهر ألقيت نفسي فيه ، فاخترت الموت على الزواج من ابن عمي ، فسخركما الله لإنقاذي ، بارك الله فيكما ! فخذوني جارية لديكم ، ولا تردوني

لأخي ، وبعد تفكير وتقليب للأمر بيني وبين صاحبي البغدادي اقترح عليّ أن أتزوجها ، فعرض الأمر عليها فوافقت، وتكفل صاحبي البغدادي بترتيب الشأن مع أخيها ؛ فإن لم يوافق سيزوجني إياها عن طريق القاضي مباشرة ، وأمام إغراء المال وافق الأخ ورد ابن عمه ، وتزوجتها على شرع الله وهدي نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وهي الآن عندي، ووهبني الله تعالى منها ولدا عاش أشهرا ، ثم مات إلى رحمة الله الواسعة ، والحمد لله على كل حال ، فعندي ثلاث زوجات من ثلاث بلدات بفضل الله تعالى ، وأيضا لديّ صحة وعافية بفضل من الله تعالى ، وأما ذرية فلا ، فهذه قصتي يا سلامة من المبتدأ إلى المنتهى ، فاكتبها كتابة مقبولة فهي تسلية للقلوب في ساعات الملل والضجر، وقد يجد بها بعض البشر فوائد وعبرا .

فرد سلامة : إي والله! إنها لقصص مشوقة يا سيد حصرم ، فلحظات البؤس مع لحظات السعادة .. لحظات الفقر مع لحظات الغنى .. ساعة في البحر وساعة في البر، وساعة أخرى تحت الأرض .. فإنها لذكريات جميلة تستحق التدوين ، بعد أيام ـ إن شاء ربي ـ ستكون هذه القصة مكتوبة كما سمعتها منك، لم انقص منها حرفا ، ولم أزده أيضا ، فما أنا إلا ناسخ لم سمعت وحفظت ، والآن حان وآن وقت الانصراف .

فضحك حصرم وقال : ليس بدٌّ من المبيت ، فتباشير الفجر ظاهرة ، نصلي للباري ، ثم ننام ، فهذه آخر سهرة .

فضحكنا وقلنا : لا ، يا سيد حصرم ! لن تكون آخر سهرة ، لقد صرنا أصحابا وأصدقاء إلا أن تطردنا .

فابتسم وقال : يا سادة ما أجمل لقاء الأصدقاء ! إذا كان لغير دنيا وهوى ، لقد عاشرت أقواما هنا وهناك ، فكانت تربطنا الأموال والحرام ..فلتربطنا معكم الصداقة والحلال ومحبة الرحمن .

فابتسمنا وقلنا : نرجو ذلك يا ابن سلام .. يا أخانا الكبير ! وندعو لك بالخير والسلام من الله السلام .

قال سلامة : عشت وكبرت ، وظللت أتردد على صاحبي حصرم بن سلام ، وقد شاب شعره

وأصبح شيخا كبيرا ، وعاش حتى شاهد زوجته ميا وهي تموت، ومنذ عرفته أيها السادة الكرام وجدته طيب النفس كريما يعطي بسخاء يعشق الخير ويساعد الضعفاء ، ومرضت إحدى زوجتيه ، وأنفق عليها دون ملل وكلل ، وما زال يبذل الغالي والرخيص كما يقولون حتى هجمه الموت ، حزنت عليه جداً ، وتألمت لفراقه رغم فارق السن بيننا ، وقمت بغسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه والتصدق عنه، وكنت وصيه على زوجتيه الأميرة صفا والمرأة البغدادية ، فحملني حملا ثقيلا، وقدر استطاعتي الضعيفة قمت بالواجب الملقى على عاتقي ، فهذه أيها الأصدقاء مغامرات وسيرة الصديق حصرم بن سلام نزيل مدينة السلام.

" تمت بحمد الله "

قصص وحكايات الفوارس

مغامرات وخيال وأحلام وأخلاق وأخيار وأشرار وفرسان وشجعان

كل هذا وغيره تجده وتقرأه في هذه السلسة من القصص

الممتعة والمثيرة والمسلية

١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك بربار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز وولديها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك